كتابة الذات ورقشها
عند بنت الشاطئ

د٠ عوض عبد الباعث الأخرس(*)

المقدمة :

يعد الإفصاح عن واقع الذات ومسيرتها وفق منظومة المجتمع الذي وجدت فيه، وتكونت تجاربها فيه، سواء أكانت تجارب طوتها صفحة الدهر، أم كانت تجارب حاضرة في الواقع المعيش، أو باستشراف ما يحمله قادم الأيام، يمثل هذا كله وقفةً مع النفس وكتابةً للذات تستعيد من خلالها أحوالها عبر امتداد زمني بعيد، يستعذب فيها الكاتب لذاته الحديثَ عن أبرز المواقف وأهم المحطات في حياته.

وغالبا ما يسير ويسترسل في حديثه يحدوه الصدق في الحديث، وتكتنفه الأمانة في السرد، حتى تصير سيرته الذاتية – بكل ما تحمل من أبعادٍ نفسية واجتماعية، وبما تتوشح به من أساليب فنية وتعبيرات لغوية خاصة بالكاتب – فضاءً نصيًّا يمكن للقراء فهمه بأكثر من معنى وفق ما تحمله عبارات الكاتب من تجارب حياتية، وما تنطوي عليه جمله من انطباعات إنسانية ولمحات تعبيرية.

هذا وقد شغلت معرفة الذات العقلاء من أهل الفلسفة وجهابذة الفكر من فجر التاريخ، فلا غرو أن نجد في مستهل العصر الحاضر فيضًا من السير الذاتية من أبرز غاياتها معرفة الإنسان لنفسه، أو التعريف به.

ولما كانت السيرة الذاتية تعبيرًا عن حياة النوابغ، ودور الأحداث والوقائع في تركيب الحالة النفسية والمزاجية للأفذاذ، كما تطلعنا أيضا على التطور الحياتي،

(*) أستاذ تخصص الأدب والنقد– قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنين القاهرة – جامعة الأزهر.

والتأثير البيئي في تكوين الشخصية، من هنا كان المنطلق إلى دراسة السيرة الذاتية لبنت الشاطئ نطالع كتابتها لذاتها ووصفها لرحلتها، ومدى تمكنها من صياغة تجربتها، وفق المعايير الفنية والأدبية لكتابة الذات.

أما **عن أهمية البحث ودواعي اختياره،** فتتمثل في الآتي:

- أهمية السيرة الذاتية في أنها رباط بين الأدب والحياة، بل هي تفاعل ملموس بينهما.
- ما يمتاز به هذا اللون من عمق في الشخصية الإنسانية .
- رغبة في لفت الانتباه إلى لون أدبي لم يحظ بالدراسة والاهتمام بالقدر الذي حظيت به الألوان الأدبية الأخرى على ما فيه من قيم إنسانية ولمسات فنية، ولمحات نقدية وتوجيهية للحياة والمجتمع.
- أن فن السيرة وكتابة الذات مجالٌ أدبي خصب في فكره وتجاربه وسياقاته اللغوية، وحقلٌ إبداعي ذو ملامح متفردة وسمات خاصة وثرية.
- دعت قيمة النص وقدر صاحبته من جهة، وقلة الدراسات التي تناولته بالدرس والتحليل من جهة أخرى إلى أن تكون هذه الوقفة معه تُجَلِّي هذا اللون الأدبي بحسبان أن كتابة الذات ترجمة وظاهرة لا تنفصل عن الأبنية الاجتماعية والمعرفية للمجتمع.

ومن دواعي العجب أنه مع اشتهار السيرة وصاحبتها وما تمتاز به هذه السيرة من تجليات إبداعية وعطاءات إنسانية وجودة فكرية مكتسية بجماليات اللغة ومتوشحة بفنون التعبير، إلا أنه لم يسايرها ما يليق بها من دراسة تُفْرِدُ لها شأن عيون السير في أدبنا الحديث.

سؤال البحث:

ما مدى تحقيق سيرة بنت الشاطئ لأدبيتها؟

وهذا السؤال ينبثق عنه أسئلة فرعية مفادها ما يلي :

- ما مفهوم السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث؟
- ما دوافع كتابة الذات عند بنت الشاطئ؟
- ما المقومات الفنية للسيرة الذاتية عند بنت الشاطئ؟

منهج البحث: سعت هذه الدراسة إلى اقتراح إجابات للأسئلة السابقة، ومن أجل ذلك كان لابد من الاستناد إلى منهج علمي يعين على ذلك ويوصل إليه، ومن ثَّم كان الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي في ضوء تضافر المعارف الإنسانية النفسية والجمالية.

حدود البحث:

هي حدود الحياة الفردية لبنت الشاطئ، وحكاية المسار الذي سعت فيه الذات إلى التكيف مع واقعها المعيش؛ بما أنها جزء من منظومة مجتمعية تتقاطع فيها حيوات أخرى، واستعراض المحطات الحياتية عبر تعاقبها الزمني، اعتمادًا على ما تطرحه سيرتها الذاتية من تنوع مادتها النفسية والاجتماعية واللغوية، وانصهار تجاربها الحياتية والفنية.

الدراسات السابقة:

سُبقت هذه الدراسة بدراسات عدة أسست لهذا الفن ووضعت تصورًا لمكوناته وحددت ملامحه وخصائصه التي تميزه عن الفنون النثرية الأخرى، والتي تجعل منه فنًّا مستقلًا بذاته، من أبرزها:

الترجمة الشخصية – د.شوقي ضيف ١٩٥٦، فن السيرة – د. إحسان عباس ١٩٥٦، السيرة تاريخ وفن – د.ماهر حسن فهمي ١٩٧٠، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث – د. يحي عبد الدايم١٩٧٤.، التراجم والسير – محمد عبد الغني حسن١٩٨٠ ،أدب السيرة الذاتية – د. عبد العزيز شرف ١٩٩١، سيرة الغائب سيرة الآتي – شكري المبخوت١٩٩٢، السيرة الذاتية في الأدب العربي– تهاني عبد الفتاح شاكر ٢٠٠٢.

وهذه الدراسات وغيرها من الأبحاث العلمية الجادة التي تناولت هذا اللون الفني بالتأسيس والتأطير أو الدرس والتحليل أفادت البحث في مسيرته، إلا أننا لم نجد بين هذه الدراسات دراسة أفردت لتناول نموذج جليل وفريد من نماذج السيرة الذاتية وهو :(على الجسر) للكاتبة والأديبة د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ترصد دوافع كتابته، وتحلل عناصره الفنية تحليلًا متكاملًا.

وما بين أيدينا عنه لا يعدو أن يكون سطورًا وأحاديثَ مقتضبة لا تشفي الغليل ولا تبل صدى الهائم العليل، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة أن تقوم به بعد تحديد مفهوم السيرة الذاتية، نشأتها، أهم سماتها وأشكالها في الأدب الحديث، وأوجه الشبه بينها وبين الألوان الفنية الأخرى.

خطة البحث:

قد قسمت البحث إلى **مقدمة:** تشمل أهمية البحث ودواعي اختياره، وسؤال البحث وحدوده، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

تمهيد : يشمل مفهوم السيرة الذاتية، ونشأتها، وأهم سماتها وأشكالها في الأدب الحديث.

*** الفصل الأول: التعريف بالكاتبة ودوافع كتابتها لذاتها، ويشمل مبحثين:**

المبحث الأول: التعريف بالكاتبة.

المبحث الثاني: دوافع كتابة بنت الشاطئ لذاتها.

*** الفصل الثاني: آليات السرد وتقنياته في سيرة بنت الشاطئ، ويشمل مبحثين:**

المبحث الأول: مقومات بناء سيرة بنت الشاطئ الذاتية.

المبحث الثاني: تشكيل النص وطرائق بنائه.

خاتمة: تشمل ما انتهى إليه البحث من نتائج، وما ينشد من توصيات تدور في فلك الإجابة عن إشكالية الموضوع، وثبت المراجع، وفهرس الموضوعات.

ومنتهى الرجاء أن يكون هذا العمل بمثابة إسهامٍ في الوفاء بما للجسر والواقفة عليه من حق على الدارسين، وإن كنت لم أقل كل ما اعتلج في النفس إزاء هذا النص الثري، ولما كان الكمال في الدرس الأدبي مطلقا، يُطلبُ فلا يدرك منه إلا النزر اليسير، فقد سرت يحدوني أمل أن تكون هذه الصفحات قد حددت معالم تعين على فهم كتابة الذات، ورسمت ملامح تسهم في دراسة هذا الفن ونقده ، دون زعم أن ما في طي هذه الصفحات هو وفاء كامل أو تأطير حاسم للذات المكتوبة، فالكلمة الأخيرة في الدراسات الأدبية والنقدية لم تكتب بعد.

**

تمهـــيد

مفهوم السيرة الذاتية، ونشأتها،
وأهم سماتها وأشكالها في الأدب الحديث

اعتناء النقاد والدارسين بالفنون الأدبية نظمًا ونثرًا قديمٌ وثرٌ غزير، إلا أن فن السيرة الذاتية لم يحظ بنفس القدر من العناية والاهتمام حتى في العصر الحاضر مع رسوخ جذوره في تاريخ الأدب العربي، واحتلاله مكانًا مرموقًا في مدونة الأدب.

ولعل لحداثة هذا اللون الأدبي – في شكله ومضمونه وقوامه وسماته مع ضرب جذوره في عصور أدبية بعيدة(١)– مع قلة النماذج الفنية الثرية تأثيرًا في قلة الدراسات الجادة التي تعتني بتحليله ونقده، كما أن لتداخله أو تقاربه وتشابهه مع ألوان أدبية أخرى تتخذ من التجربة الشخصية مادة لها كالرواية والتاريخ والمذكرات واليوميات– أثرًا في صعوبة تحديده؛ ما جعل إعطاء تعريف جامع مانع يحيط بالمفهوم إحاطة السوار بالمعصم يوضح المعالم ويحدد الملامح أمرًا غير يسير، "فهو من أكثر الأجناس الأدبية استعصاءً على التعريف؛ وذلك لأن حدوده أكثر مرونة وأقل وضوحًا فيما يتعلق بالشكل من الأجناس الأدبية الأخرى مثل الشعر الغنائي أو الملحمة أو الدراما(٢)".

ومن ثَّم تباينت الآراء حول تعريف السيرة الذاتية.

فما السيرة؟

كلمة سيرة مأخوذة من المادة اللغوية سَيَرَ، والسَّير :الذهاب والاسم منه السّيرة، والسّيرة الضرب من السَّير، والسِيرة السنة، والسّيرة الطريقة، يقال: سار بهم سِيرة

(١) ينظر :السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٢٥، ط/ دار القلم، الطبعة الثانية – الكويت ١٩٨٣م.

(٢) كتابة الذات – دراسات في السيرة الذاتية، د. صالح معيض الغامدي، ص١٢، ط/ المركز الثقافي العربي – المغرب ٢٠١٣م.

حسنة، والسّيرة: الهيئة، وفي التنزيل: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى}[١] ، وسَيَّر سِيرة:حدَّث أحاديث الأوائل[٢].

ومن ثَّم تدفعنا إماطة اللثام عن لفظ السيرة معجميًّا أن ننطلق من خلال دلالتها المعجمية المتعددة للحالة التي يكون عليها الإنسان في مسيرته، إلى التعريف الاصطلاحي، ويقصد به بصورة عامة :مصطلح يدل على سيرة الحياة أو ترجمة الحياة، وهوعبارة عن ترجمة حياة أحد الأعلام سواء ترجم لنفسه أوترجم له غيره.

أما عن مصطلح **السيرة الذاتية**، وهو إن كان حديث النشأة [٣] ، فقد سعت جماعة من النقاد لوضع تعريفات مقتضبة أو منبسطة لتحديد ورسم حدوده وكشف ماهيته، ومن أبرز هذه التعريفات ما وضعه ستاروبنسكي المولود في جنيف ١٩٢٠:" هي سيرة شخص يرويها بنفسه[٤]" ، ويفسر ذلك محمد عبد الغني حسن، فيقول:" هي جنس من الكتابة يتخذ فيه الفرد من ماضيه الشخصي موضوعًا للإنشاء، فيبرز آماله وآلامه، ويتحدث عن أمجاده وخيباته، إنه الجنس الأدبي الذي يعرف فيه المبدعُ الآخرين بنفسه، ويتعرف فيه إلى نفسه[٥]"، وعليه فالسيرة الذاتية هي أن يكتب المرء تاريخه بنفسه، فيسرد أعماله وآثاره ويذكر أيام

---

(١) سورة طه:الآية٢١

(٢) معجم لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري(٦٣٠ – ٧١١هـ)،(٣٨٩/٤) ط/ دار صادر – بيروت.

(٣) ينظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص ٧، ١٠، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧م، كتابة الذات – دراسات في السيرة الذاتية، د. صالح معيض الغامدي، ص١٤.

(٤) ينظر: سيرة الغائب سيرة الآتي – السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، شكري المبخوت، ص٩، ط/ دار الجنوب للنشر ١٩٩٢م.

(٥) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ص ٢١، ط/ دار المعارف –الطبعة الثالثة.

طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له من أحداثٍ تدور بين الألم والأمل، والترح والفرح.

هذا، ويرى د.عبد العزيز شرف أن السيرة الذاتية تعني:" ترجمة حياة إنسان كما يراها هو[١]" ، ويتوسع د.يحي عبد الدايم في تعريفه للسيرة الذاتية مضمنًا تعريفه الجوانب الفنية الإبداعية التي يجب مراعاتها عند كتابة السيرة الذاتية، فيقول: "والترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيًا كاملًا عن تاريخه الشخصي على نحوٍ موجزٍ حافلٍ بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم وعذوبة العبارة، وحلاة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حواره مستعينًا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله[٢]" ، وهذا التعريف يضع بين أيدينا توصيفًا أقرب إلى الشمول والتحديد لمقومات السيرة الذاتية بحسبانها عملًا فنيًّا مترابط الأواصل مكتمل الأركان، يستمد من مقوماته الوافية:الأصالة والقوة، والاستمرار والبقاء والصدق والتأثير في المتلقين، بما يشعه من جمال وفن وصياغة لاستدعاء تاريخه المفعم بالمواقف والأحداث.

ومن هنا يتضح الفرق بين السيرة الذاتية وأختها الغيرية في أن الذاتية الحضور فيها للكاتب" متصل بضمير الأنا كتعبير عن امتلاك ناصية الكلام، والتذويت من خلال تحويل تلك الأنا إلى بؤرة، والميثاق التلفظي الذي يتجلى في أوضح صوره في إعلان الكاتب عن مقصده من الكتابة[٣]"، ومن ذلك يتضح أن السيرة الذاتية

(١) أدب السيرة الذاتية، د. عبد العزيز شرف،ص ٢٧، ط/ لونجمان ١٩٩٢م.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص٢٣.

(٣) الكتابة والوجود- السيرة الذاتية في المغرب، عبد القادر الشاوي،ص ٧،ط/ أفريقيا الشرق- المغرب ٢٠٠٠م.بتصرف يسير.

غارقة في الذات (الأنا) تغترف من معين ذكرياتها وتنهل من نبع ذاكرتها، وأن شخصية الكاتب هي بؤرة العمل الأدبي، ذلك أن السيرة الذاتية تهتم وتحتفي بالحياة الشخصية والكشف عن ذات صاحبها، فهي لون من اكتشاف النفس وبوح عن آمالها وآلامها في رحلتها الوجودية بين الحياة والموت " تتردد فيها أصداء الماضي في الحاضر، بحثًا عن قانون الروح الفردية التي ظهرت في هذا العصر، فالفرد ليس إذن مجرد حالة وجود، بل قوة واقعة في سبيل التطور، ولا يمكن فهمها إلا عن طريق قصة حياته[١]".

أما عن تسمية السيرة ترجمة، فذلك لما بينهما من أوجه اتفاق متعددة، والاختلاف يكاد يكون في نهج الكاتب وطول نفسه"، فالاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة"[٢].

ومما ذكر يُفهم أيضا معنى ذاتي بأن الكاتب هو صاحب التجارب وصاحب الوقائع، فهو المعايش (البطل)، وهو المسجل أيضا(الراوي).

النشأة والتطور:

فن السيرة كغيره من الفنون الكتابية قبل أن يستوي على سوقه كفنٍ له أصول ومميزات، انبنى – وفقا لما تقتضيه سنن التطور والنمو– على امتدادات تاريخية طويلة، وحقب زمانية بعيدة، ومعرفة العرب بهذا اللون قديمة بدأت باستخدام مصطلحي (سيرة أو ترجمة) للتأريخ لحياة الأفراد، فوجدنا السير النبوية التي تناولت حياته ﷺ ومواقفه وغزواته، بداية بسيرة ابن إسحاق(ت١٥١هـ)، ثم سيرة ابن هشام(ت٢١٨هـ)، ثم تلا ذلك الترجمة للأفراد متمثلة في علم الرجال والجرح

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٤١ .

(٢) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ص ٢٨.

والتعديل والطبقات التي ترجمت للأدباء إلى جانب العلماء والأفذاذ [1] ، كالشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٣٢٣ هـ) والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر(ت٤٦٣هـ)، وصفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي(ت ٦٢٦ هـ)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير(ت ٦٣٠هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان(ت ٦٨١هـ)، وسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٧٤٨هـ)، وطبقات الشافعية للإمام تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) وغيرها، ثم يطلعنا صاحب كتاب العلماء الذين ترجموا لأنفسهم عن محاولات وبدايات قديمة وجذور عتيقة لفن السيرة الذاتية، وإن لم تكتمل عناصره الفنية كما هو العهد به في العصر الحديث[2]، وإن لم يصطلحوا على تسميتها بالسيرة الذاتية، إلا أنها حوت قدرًا من الأداء الفني الذي يقربها من السيرة الذاتية المعاصرة، فإن " كثيرًا مما كتبه العرب عن أنفسهم صاغوه في أسلوب واضح، سهل قائم على الإيجاز المحكم، والعبارة العذبة وحسن العرض وسلاسة السرد القصصي، والقدرة على إعادة الماضي، وبعث الحياة والحركة والحرارة في تصوير الأحداث والتجارب والشخصيات، وقد راعى كثير من هذه الترجمات الذاتية الصراحة والصدق والتجرد في كثير من النظرات والآراء والتجارب المتصلة بالذات وبالشخصيات، وبعضها صور أصحابها ما عانوه من صراع داخلي وخارجي، تصويرًا دافقًا بالحيوية والنمو، يكشف عن مدى ما أصاب شخصية أحدهم من تحولٍ وتغيرٍ وتطور[3]"، كما أثبتوا فيها كثيرًا من الجوانب الفنية المعتبرة كالزمان والمكان والحركة ومهارة السرد الجاذب الماتع، واستبطان الأحوال النفسية، ومن أمثال ذلك : طوق الحمامة لابن حزم (ت٤٥٦هـ)، والمنقذ

(١) ينظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص٤٣.

(٢) العلماء الذين ترجموا لأنفسهم، بكر عبد الله أبو زيد، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ

(٣) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص٥١.

من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال لأبي حامد الغزالي(ت٥٠٥هـ)، والاعتبار لأسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ)، والتعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا (لعبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨هـ)، وإن كان فيها بعض القصور الفني المتعارف عليه في العصر الحديث كالإحساس بالصراع وقوته، والتعري النفسي والاعتراف المخلص، والتكامل في عرض شتى جوانب الحياة، والتنسيق الزمني وتطوره، إلا أنها تكاد تتفق على التعبير عن الإنسان في عمومه، وإن لم تتعمق بداخله وتسبر أغوار نفسه، ولعل للأنماط الثقافية والمُثُل القيمية أثرًا في ذلك[١]، إلا أن ذلك لا ينقص من قيمتها التاريخية والأدبية كإرهاصات لهذا الفن وخطوات أولى في مسيرته حتى استوى على سوقه وأثمر يانع ثمره على يد رواده في العصر الحديث كأحمد شوقي، وطه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، وعائشة عبد الرحمن، وميخائيل نعيمة...

وإذا كانت الحياة الأدبية إبان عصور الضعف والانحطاط الذي جثم على المجتمع العربي أصابها الركود كباقي الجوانب الحياتية والفكرية والعلمية، كدليل على تأثر الأدب بالحياة والحضارة والتمدن، ومن ثَّم لم تمدنا هذه الحقب بنماذج عالية في هذا الفن.

غير أنه على الشاطئ الآخر وجدنا النهضة الأوربية أفرزت فيما أفرزت من تطور حضاري وتقني وتغير في أنماط الحياة والمعيشة، فظهرت عدة سير مميزة أبرزها سيرة كردانو(ت١٥٧٦م) الذاتية (كتاب حياتي) التي يحلل فيها نفسه، كما قدم سيليني نفسه في سيرته، كما ظهرت سيرة سانت تريزا كثالث أعظم سيرة ذاتية في القرن السادس عشر[٢]، ثم توالت الإصدارات في القرن السابع عشر وكثرت فيه اليوميات والمذكرات، ومن أشهرها مذكرات الكردينال دي رينز، ومع ظهور

(١) ينظر :سيرة الغائب سيرة الآتي، شكري المبخوت، ص٢٦.

(٢) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٣٩ .

الحركة الرومانتيكية في مستهل القرن الثامن عشر قوي الإحساس بالذات، وعليه كثرت السير الذاتية، وكان من أبرزها (اعترافات روسو ت١٧٧٨م) وهي نموذج على النقل الواقعي للحياة وتحليل الشخصية مع الصراحة وعدم الغموض، وفي تلك الحقبة يكتب (جوته) سيرته(الشعر والحقيقة) والتي طور فيها الإحساس بالشخصية مع تجاهله للقلق أو الصراع، ثم جاءت (اعترافات تولوستوي) لتمثل نقلة جديدة في السيرة الذاتية لتعبيرها عن نفس إنسانية كبيرة ناضجة بعد تجارب طويلة وأحداث مريرة، وتأتي يوميات (مارية بشكرتسف) لتعيد صياغة الصراع النفسي بين الشك واليقين معتمدة على التأمل والتحليل مع التعرية والصراحة.

ومع التطور الاجتماعي والحياتي والتحول في الأنظمة المعرفية في الغرب، ومع تبدل النظرة إلى الإنسان ورغباته وعلاقته بالوجود بدأت في الظهور سلسلة من السيرة الذاتية تصور صراع الأجيال بين الارتباط بالماضي واستشراف المستقبل، ويمثل ذلك كتاب (الأب والابن لإدمند جوس) مصورًا الصراع بين نفس مقبلة على الحياة ونفس مستدبرة مستسلمة، ثم توالت النماذج من الأدب الرفيع للسيرة الذاتية، وهذا الجنس الأدبي الذي نما في الغرب لم ينشأ من عدم، فجميعها مسبوقة باعترافات القديس أغسطين التي كتبها في القرن الخامس الميلادي[١].

ثم بدأ الشرق يقظته من سباته، ومع توافد البعثات التعليمية إلى الغرب والاحتكاك والانفتاح على ما يُكتب هناك، والتأثر به وجدنا السيرة الذاتية بدأت تتنامى في كتابات الأدباء والمصلحين العرب كرفاعة الطهطاوي في (تخليص الإبريز)، وأحمد فارس الشدياق في كتابه (الساق على الساق)، وعلي مبارك في (الخطط التوفيقية)، ثم جاء من بعدهم شوقي ليكتب سيرته في مقدمة ديوانه، ومع تعالي الإحساس بالذات إبان الثورة المصرية١٩١٩م بدأت مرحلة من التعبير عن النفس ومعاناتها وتطلعاتها، فظهرت (إلى ولدي)لأحمد أمين، وتلاها(اعترافات

(١) سيرة الغائب سيرة الآتي، شكري المبخوت، ص١٨

شكري) و(ولدي) لمحمد حسين هيكل، ومن ثم تطورت السيرة الذاتية على يد مجموعة من أفذاذ القرن المنصرم كأحمد أمين في (حياتي) وطه حسين في (الأيام)، والعقاد في (أنا)، وعائشة عبد الرحمن في (على الجسر)، وميخائيل نعيمة في (سبعون)[١] ، وتوفيق الحكيم في (سجن العمر)، فاكتمل شكلها الفني وبناؤها الدرامي الجاذب الماتع " فالسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث لا يمكن فصلها عن جيل طه حسين، فمع أبناء هذا الجيل بدأ الوعي الفني بخصائصها، وهو وعيٌ مأتاه إلمامهم بالآداب الغربية، وانتماؤهم إلى مرحلة تحول فكري عميق مَثَّلَ المهاد الذهني والاجتماعي لتقبل هذا الشكل الفني[٢]، ولترسم لنا هذه السير وغيرها الشخصية الإنسانية المعاصرة في صراعاتها، وتكيفها مع الأحداث والمكان والزمان، وتأثرها بالسياق الثقافي السائد في خصوصية فنية ذات ملامح خاصة ومعالم مميزة.

أهم سمات السيرة الذاتية:

لفن السيرة الذاتية معالم فنية خاصة، تعين كاتبها على التعبير عن ذاته ورغباته وميولاته، وفكره ونظرته للحياة والأحياء، وإذا كانت كل سيرة ذاتية هي وحدة مستقلة خاصة بصاحبها رُسِمت بقلمه وصيغت بقالبه، وعبرت عن قلبه، وترجمت نظرته، إلا أن هناك قواسمَ مشتركةً وخطوطًا عريضةً، وملامحَ عامةً تحفظ للسيرة الذاتية تميزها وخصوصيتها بين الفنون الأخرى لا سيما المتقاربة معها، فالسيرة الذاتية " ليست تلك التي يكتبها صاحبها على شكل مذكرات يعني فيها بتصوير الأحداث التاريخية، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتي، وليست هي التي تكتب على صورة ذكريات يعني فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته، وليست هي المكتوبة على شكل

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٤١ وما بعدها .

(٢) سيرة الغائب سيرة الآتي، شكري المبخوت، ص٣١.

يوميات تبدو فيها الأحداث على نحوٍ متقطعٍ غير رتيب، وليست في آخر الأمر اعترافاتٍ يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصحيح، وليست هي الرواية الفنية التي تعتمد في أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها[١]" ، فهذه الأشكال(المذكرات– الذكريات– اليوميات – الاعترافات– الرواية) وإن كانت تتقارب في بعض الملامح الفنية مع السيرة الذاتية فإنها تغايرها؛ لأن للسيرة الذاتية سمات خاصة تميزها عن أخواتها وتجعلها جنسًا أدبيًّا مستقلا، من ذلك أنها:

أولًا: تستند إلى الاستبطان الداخلي للشخصية في علاقتها بالواقع الموضوعي:

حيث تعتمد على استرجاع الكاتب لمواقف من حياته، وللعقبات التي ألمت به في مسيرته، فهي اجترار من معين الأيام قائم على الاستدعاء والاستعادة على حد تعريف فليب لوجون للسيرة الذاتية بأنها عبارة عن: "محكي استرجاعي نثري يحكيه شخص واقعي عن وجوده الخاص عندما يركز على حياته الفردية، وخصوصًا على تاريخ شخصيته[٢]"، ومن ثَمَّ فهي تختلف عن المذكّرات ؛ لأن السيرة الذاتية تركز على الأحداث الشخصية لحياة الكاتب، ولا تعبأ بالأحداث العامة، في حين أن المذكرات تهتم في المقام الأول بالأحداث العامة أكثر من الاهتمام بالأحداث الشخصية.

كما تغاير بذلك التاريخ العام؛ لأن التاريخ "يبحث وراء الحقيقة ويمحصها، ويجلو غموضها في أي جانب من جوانب الحياة الإنسانية، بينما السيرة الذاتية تبحث عن الحقيقة في حياة إنسان، وتكشف عن مواهبه، وأسرار عبقريته من ظروف حياته، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه[٣]"، فهي تقديم للشخصية من الداخل إلى الخارج، والحقيقة التي يبحث عنها كاتب سيرته

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص١٦.

(٢) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأبدى، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي،ص٢٢، ط/ المركز الثقافي العربي – الطبعة الأولى بيروت١٩٩٤ .

(٣) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٧، بتصرف يسير.

ليست حقيقة تاريخة مرتبطة بالأحداث والوقائع، لكنها حقيقة نفس بشرية تؤثر وتتأثر بما تحمله من مشاعرَ وأفكارٍ، وعواطفَ وأحاسيسَ، وآمالٍ وآلام.

ثانيًا: الدقة في رسم الشخصية:

حيث تركز –في مجملها –على الرسم الدقيق للشخصية في حركتها الدائبة من أجل الملاءمة بينها وبين البيئة عن طريق تكيف الشخصية أو تغير المناخ نفسه، وإن اختلف مستوى التركيز على تطور الشخصية وقوة الصراع والعرض الفني، والتجرد أو تتبع أعماق النفس(١).

ثالثًا: البناء والهيكل الفني المرسوم الواضح :

فكاتب ذاته يعتني بترتيب الأحداث والمواقف والشخصيات وصياغتها صياغة أدبية محكمة، بعد انتقاء الأحداث الحقيقيّة الكبرى في حياته من بين مواقفَ وأحداثٍ فرعية تزدحم بها الذاكرة، ومن ثم يحتاج إلى التركيز لتَمْثُلَ الحقيقةُ كاملةً نصب عينيه(٢)، وعليه يتضح دور ترتيب الأحداث والمواقف وأدوار الشخصيات في فنية السيرة الذاتية وتميزها وثرائها، فالسيرة الذاتية " فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء(٣)"، من خلاله يوقفنا كاتب ذاته على أطوار حياته، والتغيرات التي طرأت عليها وشكلتها وأثرت في ميوله وسلوكه، مع حرية اختيار طريقة البناء المناسبة للكاتب، "فالترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق والبناء والروح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيًا كاملًا عن تاريخه الشخصي على نحو حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم وعذوبة العبارة، وحلاة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من

(١) ينظر: السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٤٥ .

(٢) ينظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص١٨.

(٣) فن السيرة، د. إحسان عباس، ص٨٤، ط/ دار صادر بيروت.

حواره مستعينًا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة [١]"، مع مراعاة أن يتم سرد الأحداث وفق ترتيبها التاريخي وتسلسلها الفني، وإلا فلا يعد العمل من قبيل السيرة الذاتية[٢].

رابعًا: الكشف عن غايته من كتابة سيرته:

يدلنا التركيز على المواقف الكبرى والأحداث الفارقة في حياة الكاتب على غايته من كتابة ذاته، واستعادة ماضيه، والغاية هي"التي تحدد أمامه معالم طريقه، وترشده إلى كل ما يجب أن يسقط ويهمل، وما يجب أن يثبت ويختار[٣]"، ومن خلاله يتحدد عند الكاتب النمط الأسلوبي المناسب لبناء سيرته، وما يذكر وما يترك، وسواء أأفصح عن غايته أم تركها للقارئ، إلا أنه يبقى أمرًا مميزًا وفارقًا بين السيرة الذاتية والألوان الأدبية الأخرى.

خامسًا: التزام الحقيقة وتقييد الخيال:

ينبغي على كاتب سيرته أن يلتزم الحقيقة، ويجنح إلى الصدق في نقل الأحداث والأخبار والشخصيات، ولا يطلق العنان لخياله؛ ليتميز عمله عن عمل الروائي والقصاص، أو المسرحي، فإذا ما أراد أن يقدم صورة فنية فلا يعتمد على الأسطورة، ولا يحتاج إلى الخلق والابتكار والتصور، بل يعتمد على المعاناة في تذكر الحقيقة ونقلها نقلًا أمينًا، وعلى نحو ما حدثت في الواقع[٤].

وطبيعة السيرة تتطلب ذلك، فغالب أحداثها وقعت، وأشخاصها حقيقيون، ومدار ذلك ما يُصدِرُ به الكاتبُ لذاته سيرتَه بالإقرار بأن ما يدونه ترجمةٌ لحياته

---

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص٢٣.

(٢) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي- تهاني عبد الفتاح شاكر، ص١٥،ط/المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت٢٠٠٢م.

(٣) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص١٨.

(٤) ينظر: فن السيرة، د. إحسان عباس،ص٨٠، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص١٨.

الشخصية، ويتطابق مع الواقع، وعليه تقام جسور من التعاطف بين القارئ والكاتب، لأنه نأى عن الكذب واقترب من التعبير عن ذاته وحياته، وهو أقدر على تسجيلها وعرضها لأنه أوعى بدقائقها وتفاصيلها من غيره، وهذه الحقائق هي المادة الخام التي يبني منها سيرته ويقيم صرح حكايته، فإذا لم يستعد الحقيقة فأي شيء يستعيد، وأي شيء يعطي للسيرة قيمة ويدفع القارئ لمطالعتها، وإن لم يقل كُلَّ الحق فلا عليه إلا أن يكونَ كُلُّ ما يقوله حقا؛ " لأن فكرة التعري الخالص بعيدةٌ بُعد عالم المُثُل، وبقدر اقتراب السيرة الذاتية من هذا المثال البعيد تكون قيمة قيمتها الموضوعية[١]"، ليبقى الصدق والصراحة والتجرد في تصوير الماضي وواقعه فارقًا في تمييز السيرة الذاتية عن غيرها من الأجناس الأدبية كالرواية والمسرحية، ولعل غاية الكاتب من سيرته يلزمه ويلح عليه بالصدق، كما أن حسبان السيرة الذاتية عملًا فنيًّا لايزيل عنها الخيال المنسّق المانح للحيوية، الذي يكون بمثابة جسر تعبر فوقه الحقيقة، غير أنه خيال "محدود بحدود الحقيقة غير مطلق، في توازن دقيق بينهما لا يطغى فيه الخيال أبدًا على الواقع والحقيقة، بل ولا يزحزحها عن موقعها، غير أنه قد يلونها بألوان الطيف، فيزيدها بريقا ولكنه لا يغير من معالمها[٢]".

سادسًا: قوة الصراع:

غير خافٍ أن الصراع جزءٌ من طبيعة الحياة وفقًا لقول الله تعالى:{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[٣]}. وأشده صراع الإنسان مع ذاته (الصراع الداخلي) وسواء أكان الصراع داخليًّا أم خارجيًّا فهو عنصر أصيل في كتابة الذات من خلال " محاولة إبراز هذا الصراع

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٤٦.وينظر: فن السيرة، د. إحسان عباس،ص ١٠٥وما بعدها.

(٢) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٤٩.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥١.

منعكسًا على الشخصية وصادمًا لها من ناحية، وصاقلًا ومطورًا لها من ناحية أخرى، وهو الذي يمنح تجربة السيرة الذاتية العمق والأصالة[1]"، وكلما اشتد الصراع واحتدم انكشفت الجوانب الإنسانية لشخصية الكاتب، وقويت تجربته واكتملت ؛ لأن الصراع ينقل واقع الحياة وتأثر الشخصية به والتعمق فيها وإمكانية تحليلها، ومن ثَمَّ يصير النص مثريًا لقارئه.

أشكال السيرة الذاتية:

مما لاريب فيه أن الظروف الاجتماعية والبيئية مع الموهبة الشخصية عوامل جوهرية تؤثر في شكل العمل الأدبي، ولها دور خطير في تحديد لونه ورسم هيكله، كما أن غاية الكاتب لذاته والمدون لسيرته تؤثر في شكل ونمط الكتابة، فهناك من يكتب لينفض عن نفسه هموم غابر الأعوام، وهناك من يكتب ليزيح عن قلبه هواجس الخوف والقلق من قادم الأيام، وهناك من يكتب ليحلل نفسه ويتعرف عليها، وآخر يكتب ليقدم نفسه أو يعرفها، وبناءً عليه تعددت أشكال السيرة الذاتية، ويمكن حصرها في الآتي:

أولًا: الإخباري:

وهو قائم على سرد الأحداث التاريخية، والغاية منه تأريخ المظاهر البيئة التي أحاطت بالكاتب، وأثرت في ثقافته وشكلت وجدانه، وفيه تقرير مباشر عن تجارب أصحابها في الحياة ككتابات الجاحظ عن نفسه، أو كتابة أبي حيان، ورحلات ابن جبير، وسيرة ابن سينا[2]، وكسيرة رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك في العصر الحديث، ومن سير الرحلات (ولدي) لمحمد حسين هيكل.

ثانيًا:التبريري الاعتذاري:

وهو لون قائم على تفسير المواقف وبذل الاعتذار وتبرير مواقفه في أحوال اكتنفته فيها التهم، فكتبوا سيرتهم لإنصاف أنفسهم أمام القارئ الذي لا يعذر

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٥٠.

(٢) ينظر: فن السيرة،د. إحسان عباس،ص ١١٥وما بعدها.

والتاريخ الذي لا يرحم، ولدفع التهم وإثارة العطف، وعلى هذا النمط سار ابن خلدون في سيرته(التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا) [١] ، وكاعترافات عبد الرحمن شكري في العصر الحديث.

ثالثًا: الكاشف عن الصراع النفسي:

من أبرز ما يميز السيرة الذاتية عن أختها الغيرية، أن الذاتية إلى الإنسان أقرب تفتش في خزائنه وتنقب في بواطنه، وتُقَلِّب ذاكرته؛ لتستخرجَ الأحاسيس المطمورة والانفعالات المدفونة، والرغائب المكبوتة، وهي أيضا تؤرخ للعقل البشري في بحثه عن الحقيقة والتجرد من الكذب والزيف، وتقديم الشخصية من الداخل إلى الخارج، ومن ثَّم جاءت بعض السير على هذا النمط الكاشف عن الصراع الروحي في بحثه عن الحقيقة، وللتعرف على الذات وكشف صراعها وتعرية نزقها كسيرة ابن الهيثم التي نقلها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، وسيرة الغزالي في المنقذ من الضلال[٢] قديمًا، ومنها (الأيام) لطه حسين، و(سبعون) لميخائيل نعيمة حديثًا.

رابعًا: المغامرة والفروسية:

وهو لون من السير يصور فيه الكاتب ذاته من خلال حياة الفروسية والبطولة والمواقف المُغَامِرة بالنفس والمضحِيِّة بالحياة، ومن أبرز ما يمثل هذا اللون أسامة ابن منقذ في كتابه (الاعتبار)، والذي يرسم فيه تجارب الفارس المغوار الذي لم يساوره الصراع الفكري، لكن يكتنفه حب الوعظ واستلهام العبر، فقد أحاطته البيئة العربية بقيمها ومُثُلِها في البطولة والفروسية التي تمضي ويحدوها التضحية والفداء، والشمم والإباء، ومن خلال هذا اللون من السير " ندرك كل القيم التي

(١) ينظر: فن السيرة، د. إحسان عباس، ص ١١٨،١٢٣. والسيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٣٤.

(٢) ينظر: فن السيرة، د. إحسان عباس،ص ١٢٦. والسيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٣٥.

عاش عليها المجتمع بما فيها من خير وشر، قيم الأمانة والنجدة، والعادات والتقاليد ... وإن خلت من التحليل والعمق، ولكننا خلال الحدث ندرك ما ندرك من قيم، وذلك هو الجانب الثابت في حضارتنا العربية[1]".

ومن خلال هذه الأنماط يتكشف لنا أن الأدب العربي على مدار تاريخه مفعم بالتجارب الإنسانية في صورة سير ذاتية، وأن الدوافع والبواعث الحاملة على كتابة الذات وتدوين السيرة سواء أكانت دوافع فكرية أم سياسية تاريخية أم نفسية مزاجية هي في نهاية المطاف تجربة إنسانية جديرة بالقراءة والدرس.

ومن هذا المنطلق وبعد هذا المهاد المقتضب – وفق طبيعة البحث – فإن القلم الرحال إلى بواطن الذات يمضي يحدوه الأمل في كشف جديد في سيرة ذاتية من عيون السير في عصرنا الحديث يقف على الجسر يطالع الماضي بعيون الحاضر وفق ما خطته أنامل صاحبته سائلا المولى عز وجل التوفيق والسداد.

**

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص ٢٣٨. بتصرف واختصار يسير.

الفصل الأول

التعريف بالكاتبة

ودوافع كتابتها لذاتها

المبحث الأول: التعريف بالكاتبة

هي: عائشة بنت محمد علي عبد الرحمن، الكاتبة والأديبة المعروفة ببنت الشاطئ.

ولدت في السادس من شهر نوفمبر عام ١٩١٣م، بمحافظة دمياط بمصر، من أسرة ذات طابع ديِّن مثقف، فوالدها الأزهري المتصوف الذي " وُلِد في قرية شبرا بخوم من ريف المنوفية، وأمضى بها طفولته يحفظ القرآن الكريم ويجوده، ثم أغراه عالم القرية الشيخ يوسف شلبي الشبراخومي بطلب العلم، فنزح إلى العاصمة مع عدد من رفاقه المجاورين، وتابع الدرس حتى نال شهادته التي عُيِّن بها مدرسًا بمدرسة دمياط الابتدائية الأميرية للبنين[١]".

وقد تمتع والدها بسمات شخصية إلى جانب تعلمه بالأزهر وامتهانه للتدريس، فقد " لفت الأنظار بأناقة ملبسه، ومرونة فكره، وحيوية شخصيته[٢]"، كما أنه تشبع بالجو الروحي الذي حظيت به دمياط في تلك الحقبة، وتأثر بالطابع الصوفي للبلدة، حتى إنه "ضاق بالتعليم العصري في المدرسة الابتدائية، فسعى سعيه حتى نُقل إلى المعهد الديني في جامع البحر، حيث أخذ مكانه بين شيوخ المعهد المبجلين، في تلك البيئة المحافظة ذات التراث الروحي[٣]"، وكانت كاتبتنا تصفه بالتقي العابد[٤].

---

(١) على الجسر(أسطورة الزمان) د. عائشة عبد الرحمن، ص١٨، ط/ دار الهلال.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٩.

(٤) ينظر: مقدمة كتابها، مع المصطفى، ص١٠، ط/ دار المعارف.

أضف إلى ذلك أنه كان ينحدر في نسبه الشريف إلى الحسين بن علي رضى الله عنهما[١].

أما عن أمها فتنتسب لبيت علم وفضل، فهي "حفيدة الشيخ الدمهوجي الذي كان شيخًا للجامع الأزهر[٢]".

وفي هذا ما يرسم ملامح البيت الذي ولدت فيه كاتبتنا ونمت، بين مناهل العلم وعبق التراث، ومدارج التصوف، وأحضان التعبد والورع، تصف ذلك فتقول:" فقد كان والدي ينتزعني من ملاعب حداثتي، ويلزمني- من قبل أن تُحَلَّ عني تمائم الصبا – صُحْبَتَهُ في مجلسه بالبيت، أو في مكتبه بجامع البحر الذي كان يسميه الخلوة[٣]"، ولعل في ذلك ما أَهَّلَهَا لحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، والتعرف على العلوم الإسلامية والعربية، والارتباط بدراسة البيان القرآني والتخصص فيه حتى نهاية العمر.

حفظها للقرآن الكريم:

بدأت بنت الشاطئ رحلتها مع القرآن الكريم بحفظه في سنٍّ مبكرة، فقد عهد بها أبوها إلى كُتّاب الشيخ مرسي بقرية شبرا بخوم ليحفظها القرآن الكريم أثناء قضاء العطلة الصيفية لعام ١٩١٨م وهي في الخامسة من عمرها، فانتظمت في الكُتاب ستة أيام في الأسبوع، وظلت على ذلك في عطلاتها الصيفية حتى أتمت حفظ القرآن الكريم[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٩.وهو: أحمد زيد على بن أحمد الدمهوجي الشافعي (١٧٦١م- ١٨٣١م) ينسب إلى قرية الدمهوج بمحافظة المنوفية، الشيخ الخامس عشر للأزهر، ولي المشيخة، وبقى بها ستة أشهر حتى لقى ربه في مايو ١٨٣١م، صاحب خلق رفيع وعلم غزير كان عازفاً عن زينة الدنيا ومظاهرها، منقطعاً للتدريس والعبادة، ولذا قل ما عرف من أخباره. ينظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني، ص٣٠٦، ط/ دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٣م .

(٣) على الجسر، ص٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص٢٢، ٢٣.

مطالعتها المبكرة للعلوم الإسلامية:

بعد أن أتمت حفظها للقرآن الكريم بدأ والدها تعليمها المبادئ الأولية لعلوم العربية والإسلام، وكان يصحبها معه إلى مكتبه في مسجد البحر لحفظ ومراجعة الدروس التي يقررها عليها(١)، وفي هذه المرحلة المبكرة من حياتها بدأت تنمو في قلبها بذور المعرفة، ويدب إلى عقلها العلم، بما كانت تسمعه في مجلس أبيها من تلاوة للقرآن، أو تداول لمسائل المعارف الإسلامية، وما كان يُلقى على آذانها من حوارات ومناقشات بينه وبين زملائه أو طلابه.

وهكذا بدأت رحلتها مع العلم والمعرفة في بواكير حياتها، وأتيح لها بالسماع والقراءة أن تحصل قدرًا من المبادئ والأسس المعرفية التي سبقت بها أقرانها وميزتها عن أترابها، وفتحت أمامها آفاقًا من الإدراك المبكر، وإن حرمتها من طفولتها واللعب واللهو مع رفيقاتها، واتخذت من ذلك قوة دافعة للتحصيل وشحذ للهمة، وشجعها على ذلك ما كانت تسمع من إطراء وثناء شيوخ البلدة وعلمائها، تصف ذلك فتقول: " ثم ما لبثت أن أَلِفت هذه القيود، ولعلي ارتحت باليأس من الخلاص منها، فأقبلت بكل طاقتي على العلم، وقد استثار زهوي ما كنت أسمع من زملاء أبي الشيوخ عن أهليتي لما وهبت له من علوم الإسلام(٢)".

وقد أدى ذلك إلى نضوجها المبكر وقوة عزمها واستعدادها لتحمل المسئولية، كما منحها حفظها للقرآن الكريم والأحاديث النبوية والقصائد المديحية، والأناشيد الصوفية طلاقةً في اللسان واعتدالًا في النطق واتزانًا في الفكر وتفردًا بين بنات جيلها، فقد كانت " المدائح النبوية والأناشيد الصوفية أول ما لمس وجداني وأرهف إحساسي من يوم أن بدأت خطوتي الأولى على درب الحياة(٣)"، ولا شك أن هذا

(١) على الجسر، ص٢٠، ٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣.

(٣) مع المصطفى، د.عائشة عبد الرحمن، ص١٠.

الميراث النفسي والعقلي والبيئي كان له أثره في صفاء قريحتها ونضج ذهنها وسلامة فكرها.

التحاقها بالمدارس النظامية:

عادت بنت الشاطئ من قضاء إجازة صيف ١٩٢٠بقرية والدها بالمنوفية لتجد أترابها قد التحقن بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات، وبعد إصرار منها وإلحاح من أمها وجدها لأمها قَبِلَ الوالدُ على مضضٍ، وبشروط منها: ألا تشغلها دراستها النظامية عن دراستها الدينية في بيت أبيها، وألا تتجاوز في تعليمها المرحلة الأولية(١).

وبعد أن أنهت الحلقة الأولى من التعليم عاد الأب إلى إصراره على عدم إكمال دراستها، في الوقت الذي كانت ترنو فيه إلى الالتحاق بالمرحلة الراقية، إلا أن مرض جدها وملازمتها له شفعا لها عند أبيها، فوافق مُرغمًا على التحاقها بالمرحلة الراقية التي أتمتها في سن الثالثة عشرة، وبدأت تتطلع لمرحلة أخرى من التعليم ترضي نهمها وتشبع رغبتها، فتقدمت إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة، على حين غفلة من والدها الذي كان مُصِرًّا على مكوثها بالبيت عند انتهائها من المرحلة الراقية كما هو حال بنات الأسر المتدينة آنذاك، ولم يلن أبوها إلا بعد وصاية شيخه منصور الشرقاوي له بالسماح لها بالدراسة، غير أن بوصلة التعليم تغيرت وجهتها من المنصورة –التي نفدت أماكنها الشاغرة– إلى مدرسة حلوان الجديدة التي أعادتها للدراسة في الفرقة الأولى رغم أنها مؤهلة للدراسة في الفرقة الثانية منذ أن تقدمت للدراسة بمدرسة المنصورة، فوافقت على العودة وبدء السلم الدراسي من أوله، لكن الرياح لم تأت بما يشتهي السَّفِنُ، فقد رفضت الوزارة التحاقها بالصف الأول مع أحقيتها في الصف الثاني، فما كان عليها إلا البحث عن مكانٍ شاغرٍ في الصف الثاني بمدرسة معلمات طنطا، وقد كان، فعادت

(١) ينظر: على الجسر، ص٢٦ وما بعدها.

أدراجها إلى طنطا؛ لتتم دراسة الصف الثاني بنجاح وتفوق، ومع ضغوط أبيها عليها وإصراره على توقفها عند هذا الحد من الدراسة، فقد أنهت السنتين الثالثة والنهائية بالدراسة المنزلية، وحصلت على شهادة كفاءة المعلمات من مدرسة طنطا بتفوق وتميز وفارق كبير عن زميلاتها المنتظمات في الدراسة، وكانت خطتها بعد الحصول على الكفاءة أن تدرس القسم الإضافي بالمنزل الذي يؤهلها للتدريس في المدارس الأولية الابتدائية أو الراقية، غير أن لجنة الامتحان الشفوي في مدرسة طنطا– لِما رأته فيها من استقامة اللسان وحسن نطق العربية، والنجابة والفصاحة، وغزارة التحصيل وسعة الأفق– أشارت عليها بتغيير وجهتها إلى الجامعة، التي ستجد فيها ما يبرد الغليل، ويروي الصدى، ويذهب الظمأ(١).

التحاقها بالعمل واشتغالها بالتدريس:

أتاح لها تفوقها اختيار المدرسة الأولية التي تعمل بها، فآثرت العمل في مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة، فرارًا من بيتها في دمياط الذي عاشت فيه نوبات من المد والجزر، والمنازعات والمجادلات المضنية، والشفاعات الراغمة في مسألة إكمال تعليمها، ولكي يتيسر لها الاستعداد لدخول امتحان القسم الإضافي شغلت نفسها بالتدريس صباحًا والدرس مساءً، إضافة إلى الاطلاع والقراءة خارج نطاق الدراسة مستعينةً بنفائس مكتبة السروري بالمنصورة التي كانت تؤجر الكتب لروادها نظير مبالغ مالية زهيدة، فقرأت للمنفلوطي وطه حسين وجورجي زيدان وغيرهم من أرباب القلم وعمالقة الكتابة، غير أن اللوائح حالت بينها وبين دخول امتحان القسم الإضافي؛ لأنه يشترط الانتظام في الدراسة ولا يُعْتَدُّ بالدراسة المنزلية، إلا أنه تم توجيهها إلى التقدم لامتحان الشهادة الابتدائية الذي لا يشترط الانتظام في الدراسة، ومن ثَمَّ تم نقلها إلى إحدى المدارس الأولية بحي السيدة زينب بالقاهرة حتى يتسنى لها الاستعداد للامتحان خاصة وأنه كان

(١) ينظر:على الجسر، ص٢٦ وما بعدها.

يشترط فيه اجتياز اللغة الأجنبية، وكاتبتنا ليس لها بضاعة من اللغات إلا العربية، وأمضت شوطًا طويلًا من التعليم دون أن تدنو من الثقافة الحديثة والتعليم التجريبي، بل كان جُلُّ تعليمها مرتبطًا بالمناهج التقليدية القائمة على الثقافة العربية والدينية، غير أن إصرارها مع ذكائها الفطري يسرا لها المضي في الطريق واكتساب ما يعينها على اجتياز اختبارات اللغة الأجنبية، ثم تقدمت بعد عام لاجتياز امتحان الكفاءة الثانوية بسنواتها الثلاث مع ما كان يثقل كاهلها من أعباء التدريس وبواهظ الأعمال الإضافية لمعلمي المدرسة الأولية، وأضيفت في تلك الحقبة دراسة الفرنسية إلى جانب الإنجليزية وعلوم الطبيعة والكيمياء، ولم يكن لها سابق معرفة بتلك العلوم التجريبية(١).

رغم كل ذلك فقد حملها طموحها مع نبوغها واستعدادها الفطري لتخطي العقبات وتذليل الصعاب، فلم تلتحق بمرحلة دراسية إلا تفوقت وكانت في المقدمة.

العمل بالجامعة :

غير أن ضعفها في مادة الطبيعة أدى إلى إعادة امتحان الكفاءة الثانوية، وبعد نجاحها في الامتحان تقرر إلغاء اعتماد نجاحها لأنها تقدمت لامتحان الثانوية بعد عام واحد من حصولها على الابتدائية، وليس بعد ثلاث سنوات، فتوجهت إلى ديوان الوزارة لعلها تجد من ينصفها ويقدر حجم معاناتها في تعليمها ومدى جهدها في تسريع دراسة المرحلة الثانوية، وقد كان، فقد قُدّر لها من يسمع شكايتها ويقدر حجم معاناتها، ومن ثم أمر مراقب تعليم البنات بالوزارة بنقلها من وظيفة معلمة بالمدارس الأولية للعمل كاتبة بكلية البنات بالجيزة، مع الإقامة بالقسم الداخلي في الكلية، ثم ترقت بعد حصولها على البكالوريا إلى سكرتيرة للكلية(٢).

وهكذا أتيح لها الاقتراب والاحتكاك بعالم جديد ليس لها به عهد من مظاهر المدنية الحديثة في المأكل والمشرب والملبس فضلا عن الدرس والتثقيف.

---

(١) ينظر :المرجع السابق، ص٤٦ وما بعدها.

(٢) ينظر :المرجع السابق، ص٥٥ وما بعدها.

عملها بالصحافة:

كان اتصال كاتبتنا بالصحافة مبكرًا، فقد لازمت – وهي لاتزال طفلة صغيرة تدرس بالمرحلة الراقية– جدها لأمها فترة طويلة في مرضه، وكان شراء الصحف لجد أمها في طريق عودتها من المدرسة من واجباتها اليومية، وكانت تقرأ عليه ما ينشر في الصحف السيارة آنذاك كالأهرام والمقطم، وكان جدها يملي عليها عروض حال ومقالات يبعث بها إلى الحكام، أو إلى الصحف المصرية يصف فيها أحوال الفقراء والضعفاء وما آلت إليه الأحوال الاقتصادية المتردية(١).

ومن ثَمَّ تفتحت أعينها على عالم الصحافة وما يُكتب فيها وما تتناوله أقلام روادها في مقتبل العمر، غير أنها لم تكتف بحب القراءة لجدها أو الكتابة له، فقد أحبت هي الكتابة، وصارت تتفنن في صياغة ما يمليه جدها عليها.

وليس ذلك كل ما في الأمر، بل تدفق حنينها إلى عالم الصحافة والكتابة في الصحف، فبدأت في مراسلة مجلة النهضة النسائية أثناء إقامتها بمدرسة المعلمات، وتوالى نشر قصائدها ومقالاتها في المجلة، إلى أن التقت – بعد إقامتها بالقاهرة – بصاحبة المجلة التي احتفت بها ورحبت بنشر مقالاتها ومراجعتها اللغوية لمواد المجلة، بل كتابة المقال الافتتاحي في بعض الأحيان نيابة عنها، ثم إسناد أعمال رئيس التحرير ومدير الإدارة لها، وعليه أُوكل إليها كتابة بريد المجلة وإعداد موادها للطبع، إلى جانب المقال الافتتاحي، ومتابعة الأعمال الإدارية للمجلة حتى يصل العدد إلى قارئيه(٢).

وقد استفادت كاتبتنا من تلك التجربة التي أشبعت هوايتها وجوَّدت طريقتها في الكتابة وزادت ثقتها، فأهلتها لمراسلة المجلات الأخرى كالهلال والبلاغ وكوكب الشرق، ونشر قصصها ومقالاتها، إضافة إلى العوائد المالية التي ساعدتها في

(١) ينظر:على الجسر، ص٣٢ وما بعدها.

(٢) ينظر:المرجع السابق، ص٥٨ وما بعدها.

إتمام مشوارها العلمي والدراسي حتى نالت البكالوريا عام ١٩٣٤م، وحينها ولدت فكرة الاسم المستعار (بنت الشاطئ) وتقصد به شاطيء دمياط، والذي يعكس مدى ارتباطها الشديد به منذ طفولتها المبكرة، وذلك هروبًا وتسترًا من معرفة اسمها الحقيقي في بيئتها الأولى، وتجنبًا لإثارة حفيظة والدها تجاهها، وصب جام غضبه عليها [١].

ثم توثقت علاقتها بالصحافة فكانت من أوليات من اشتغلن بالصحافة في مصر ، بعد انضمامها إلى أسرة تحرير جريدة الأهرام وتوالي نشر مقالاتها فيها عن الريف المصري، والتي وثقت العلاقة بينها وبين القراء، لا سيما وأن مقالاتها كانت تهتم بالكادحين من أبناء مصر في حقول الريف وشواطئ المدن الساحلية، وقد زادت العروة وثوقًا بعد صدور كتابها الأول عن الريف المصري عام ١٩٣٦م، وهي مازالت طالبة بالفرقة الثانية بكلية الآداب[٢].

الدراسة الجامعة:

بعد حصولها على البكالوريا عام ١٩٣٤م استطاعت في العام التالي أن تدخل كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول آنذاك) بعد أن كانت تظن أن جميع الأبواب موصدة دونها، إضافة لما أصابها من هواجس الخوف والقلق والشعور بالذنب تجاه والدها وعصيان رغبته في توقفها عن الدراسة .

وقد انتظمت في دراستها حتى نالت من كلية الآداب شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها في عام ١٩٣٩م ، ثم نالت درجة الماجستير عام ١٩٤١م، وكانت عن (الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري)، ودرجة الدكتوراه عام ١٩٥٠م، وكانت في تحقيق (رسالة الغفران) للمعري.

---

(١) ينظر :المرجع السابق، ص٦٠.

(٢) ينظر :المرجع السابق، ص٩٣.

زواجها:

تزوجت بنت الشاطىء من أستاذها الشيخ أمين الخولي الأستاذ بكلية الآداب[١] والذي ساندها في مسيرة حياتها، وكان لها خيرَ زوجٍ وصديقٍ ومعلم، تقول في ذلك :"كنت أشعر بالأستاذ الخولي معي في كل ما أقرأ وما أكتب، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة حتى ألمح سرها[٢]".

(١) أمين الخولي: عالم دين وأديب وسياسي مصري، تميز بدورِه التجديدي حيث اقتحم معارك التجديد لبعض القضايا المعاصرة حتى لقب بإمام المجددين.

ولد أمين إبراهيم عبد الباقي عامر الخولي في الأول من مايو عام ١٨٩٥م بمركز أشمون بمحافظة المنوفية، حفظ القرآن مبكرًا وهو في سن عشر سنوات، ثم الْتحق بعدة مدارس بالقاهرة، وهي: مدرسة لا فيسوني، فمدرسة المحروسة، ثم مدرسة القضاء الشرعي، التي تخرَّج فيها بتفوق عام ١٩٢٠م وعُيِّنَ فيها مدرسًا.

ابتُعِثَ إلى روما إمامًا للبعثة الدراسية المصرية، ثم إلى برلين إمامًا للمفوضية المِصرية؛ مما جعله يُتقن اللغتَيْنِ الإيطاليةَ والألمانية، وأُتيح له خلال تلك الفترة الاطِّلاعُ على إنتاجِ الكثير من المستشرقين المهتمِّين بالدراسات الإسلامية، ثم عاد إلى القاهرة عام ١٩٢٧م، وعُيِّن عام ١٩٢٨م مدرسًا للغة العربية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، ثم أصبح رئيسًا للقسمِ عام ١٩٤٦م. أسَّس بالتعاونِ مع مجموعة من طلبته ناديًا أدبيًّا أطلق عليه اسم (الأُمناء)، وكانَ يهدف من خلاله إلى الارتقاء بالأدب والفن نظريًا وعمليًا، ومن أبرز نتاجِه كتاباه: مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير، ومِن هدْيِ القرآن.

عُيِّنَ مُستشارًا لدارِ الكتب المصريةِ عام ١٩٥٣م، ومديرًا عامًّا للثقافة، وبعد تقاعده عام ١٩٥٥م اختيِرَ عضوًا بمَجْمعِ اللغة العربية بالقاهِرة.

ولأمين الخولي إنتاجٌ كبيرٌ كان له عظيمُ الأثرِ في حركة التجديد الدينيِّ في مصر، مِنه: المجدِّدونَ في الإسلام، وسلسلة مِن هَدي القرآن، وصِلة الإسلامِ بإصلاحِ المسيحيَّة، وتاريخ المِلل والنِّحَل، ومُوطَّأ مالك، وفن القول، توفي أمين الخولي عام ١٩٦٦م، ودُفِن في قرية «شوشاي» مسقط رأسه. للاستزادة ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي،٤/ ٣٤وما بعدها، ط/ دار القلم، الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٩م.

(٢) على الجسر، ص١٠٦.

وابنتين، لكنها عانت الوحدة، وألَمَّ بها الحزن الشديد بعد وفاته ووفاة ابنها أكمل وإحدى ابنتيها، وهجرة الثانية مع زوجها خارج مصر(١).

وظائفها:

تدرجت كاتبتنا في العديد من الوظائف بداية بمعلمة في المدارس الأولية، ثم كاتبة بكلية البنات ثم سكرتيرة للكلية، ثم عملت مفتشة للغة العربية في وزارة التعليم بمصر ١٩٤٣-١٩٤٤م، ثم بعد حصولها على الدكتوراه ١٩٥٠م عُينت أستاذًا مساعدًا بجامعة عين شمس من عام ١٩٥١-١٩٦١م ، وتدرجت في المناصب الأكاديمية إلى أن أصبحت أستاذ كرسي ورئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٩٦٢-١٩٧٢م، وأستاذًا منتدبًا للإشراف على بحوث الماجستير والدكتوراه في جامعة الأزهر عام ١٩٦٨م، وأستاذًا زائرًا لجامعات أم درمان ١٩٦٧ والخرطوم، والجزائر ١٩٦٨، وبيروت ١٩٧٢، وجامعة الإمارات ١٩٨١، وكلية التربية للبنات في الرياض ١٩٧٥- ١٩٨٣، وأستاذاً للتفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب، حيث قامت بالتدريس هناك ما يقارب العشرين عامًا.

نتاجها:

خلفت كاتبتنا – رحمها الله- رصيدًا كبيرًا وثريًّا من النتاج العلمي والفكري والأدبي المتنوع في الدراسات القرآنية واللغوية والتراثية التي تعكس رصانة فكرها واتساع أفقها واستقامة منهجها، كما كتبت المقالة الصحفية والسيرة الذاتية والغيرية، إضافة إلى المشاركات العلمية والبحثية في المؤتمرات والندوات، وكانت أول امرأة تحاضر بالأزهر الشريف، كما كان لها مئات المقالات التى نشرتها فى جريدة "الأهرام" على مدى أكثر من ستين عامًا، عالجت فيها القضايا المختلفة التى تمس الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر والعالم العربى، وقد أشرفت على

(١) ينظر: مقدمة كتابها، مع المصطفى، ص٩.

صفحة الأدب بالجريدة، وقد جمعت جريدة الأهرام مقالاتها فى تسعة مجلدات ضخمة [١].

وتركت تراثاً من الكتب المهمة والعلم النافع في هذه المجالات والذي ضمن لها الخلود، ومن أبرزها:

- الريف المصرى، مكتبة ومطبعة الوفد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٦.
- أرض المعجزات، سلسلة اقرأ عدد ١٠٤، دار المعارف، سبتمبر ١٩٥٦.
- الغفران لأبى العلاء المعرى، دراسة نقدية، دار المعارف، ١٩٦٢.
- التفسير البياني للقرآن الكريم طبعة دار المعارف ١٩٦٢.
- تحقيق رسالة الغفران، لأبى العلاء المعرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.
- على الجسر– أسطورة الزمان، ١٩٦٧م.
- قضية الفلاح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- القرآن وقضايا الإنسان، طبعة دار المعارف١٩٦٩م.
- مقال فى الإنسان، دراسة قرآنية، دار المعارف، ١٩٦٩.
- تراثنا بين ماضٍ وحاضر، دار المعارف، ١٩٧٠.
- قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر، دار المعارف،١٩٧٠.
- من أسرار العربية فى البيان القرآنى، جامعة بيروت العربية، لبنان ١٩٧٢.
- أبو العلاء المعرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥.
- الإسرائيليات في الغزو الفكري، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٥.
- جديد فى رسالة الغفران، نص مسرحي من القرن الخامس الهجرى، دار الكتاب العربى، بيروت،١٩٨٣.
- أم النبيّ، الكتاب الأول فى تراجم سيدات بيت النبوة، خمسة كتب فى مجلد واحد، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٨٤.

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي،٦/ ٣٨وما بعدها، بنت الشاطئ من قريب، حسن جبر، ص ٢٤٦،ط/ دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠١م.

- نساء النبيّ، الكتاب الثانى فى تراجم سيدات بيت النبوة، الطبعة المشار إليها.
- بنات النبيّ، الكتاب الثالث فى تراجم سيدات بيت النبوة، الطبعة المشار إليها.
- السيدة زينب، الكتاب الرابع فى تراجم سيدات بيت النبوة، الطبعة المشار إليها.
- السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما، الكتاب الخامس فى تراجم سيدات بيت النبوة، الطبعة المشار إليها.
- لغتنا والحياة، دار المعارف، ١٩٩١.
- مع المصطفى، دار المعارف ١٩٩٢.
- القرآن والتفسير العصري (هذا بلاغ للناس) دار المعارف – سلسلة اقرأ– العدد ٣٣٥.

بنت الشاطئ في مرآة النقد:

أثبتت الصفحات السابقة أننا أمام أديبة من طراز فريد، وكاتبة مناضلة، ومفكرة مكافحة، وباحثة واعية، وأستاذة جامعية، حظيت بمكانة رفيعة في أنحاء العالم العربي والإسلامي، وكرّمتها الدول والمؤسسات الإسلامية؛ فكانت أول امرأة عربية تنال جائزة الملك فيصل في الآداب والدراسات الإسلامية، كما كرّمتها المؤسسات الإسلامية المختلفة بعضوية ضنت بها على غيرها من النساء مثل: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، والمجالس القومية المتخصصة، وكرمها ملك المغرب، ومن تصاريف القدر أن تكون آخر زياراتها خارج مصر لحضور فعاليات جامعة الصحوة الإسلامية بالرباط بنهاية أكتوبر ١٩٩٨، ويحتفي بها طلابها الذين صاروا رواداً، ولذا أعلنت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية عند وفاتها عن إقامة سرادق لتقبل العزاء فيها في لفتة نادرة تعكس مكانة بنت الشاطئ من الخليج إلى المحيط.

لقد كانت –رحمها الله – من أعلام الأمة جاهدت بالعلم والقلم للدفاع عن دين الله، وتمثل مسيرة بنت الشاطئ في طلب العلم والكفاح من أجل الدراسة في

الجامعة (في زمن كانت يقتصر فيه دور المرأة على المنزل) وفي البحث والكتابة في قضايا الفكر الإسلامي نبراسًا لأجيال متتالية، ولا شك أن مسيرتها وإسهاماتها ستظل علامة مضيئة للمرأة المسلمة المعاصرة، ورصيدًا فكريًّا في الساحة الإسلامية.

وقد "حصلت بنت الشاطئ على جوائز كثيرة فى حياتها، لكن جائزتها الكبرى هى نجاحها فى تقديم صورة مشرفة للأستاذة المصرية التى صارت مثلًا أعلى للمرأة المصرية فى سعيها نحو إثبات وجودها فى مجال العلم والثقافة، وفى مجال خدمة المجتمع والثقافة"(١).

وقد رصدت أقلام النقاد من أهل الفكر وأرباب البيان هذه المكانة السامقة لبنت الشاطئ، ومن ذلك ما قاله عنها وزير الأوقاف الأسبق الدكتور محمود حمدى زقزوق – رحمه الله – :" تُعد الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) رائدة شجاعة من رواد الفكر الإسلامى المستنير فى القرن العشرين، وقد أثبتت –على مدى ستين عامًا من العطاء العلمى الإسلامى المتواصل– أن العلم الدينى ليس مقصورًا على الرجال، وفتحت الطريق أمام بنات جيلها ومَن بعدهن لإثبات مواهبهن فى جميع المجالات، وبإرادة حديدية، وعزيمة لا تلين تغلبت على كل ما صادفها من عقبات فى سبيل مواصلة تعليمها، وتركت تراثًا علميًّا ثريًّا للأجيال، وامتدت أستاذيتها إلى ربوع العالمَيْن العربى والإسلامى"(٢).

وقالت عنها الكاتبة وفاء الغزالي:"العظماء من الناس علامات فى تاريخ الأمم، وبنت الشاطئ واحدة من هذه العلامات المضيئة فى تاريخ بلادنا"(٣).

وعن كفاحها ومثابرتها وثمرة جهادها تقول وفاء الغزالي: "كان مشوارًا طويلًا مشته بنت الشاطئ فى طريق العلم، وكان مكللًا بالانتصارات والإنجازات،

(١) بنت الشاطئ، د.عوض الغباري ص ٤٦.

(٢) بنت الشاطئ– رحلة فى أمواج الحياة، وفاء الغزالى، ص١٣٠،ط/ كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، مايو ١٩٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧.

وبشخصيتها الفريدة، وبمؤهلاتها وبحوثها التى جاوزت شهرتها أقصى الوطن العربى والعالم الإسلامى إلى "المغرب" حيث دُعيت بصفتها الشخصية إلى أكثر المؤتمرات الدولية والمحافل الإسلامية، وتُرجم لها كثير من كتبها، ودخلت كتبها أصول المراجع والمصادر المقررة على الطلاب فى معاهد الدراسات العربية والشرقية بجامعات غربية عريقة وحديثة، واختارها عدد منهم موضوعًا لرسائلهم الجامعية" [١].

وعن منهجها والقيمة الحضارية لكتاباتها يقول الأستاذ حسن جبر:"بنت الشاطئ تنتمى – دون ريب – إلى الحضارة الإسلامية، وترسم منهجها وتطبقه فى إطار هذه الحضارة، وفى الوقت نفسه تلمس وأنت تتابع نتاجها العلمى درايتها بأن الحضارة الإسلامية هى إحدى الحضارات الإنسانية الكبرى، وهو إدراك صحيح ما دامت قد تعلمت منذ البداية أن الدين عند الله واحد وهو الإسلام، وأن البشرية ترجع إلى أصل واحد، وعليه فإن ثمار الجهود البشرية عامة ملك عام لمن يطلبها، ومنهج البحث هو سبيل الوصول إلى هذه الثمرة"[٢].

وعن مكانتها بين أبناء جيلها يقول:"لقد تميزت بنت الشاطئ بجمعها النادر بين الدراسة الراسخة لعلوم الإسلام، وعلوم اللغة العربية، مما هيأ لها– بأصالة واقتدار– مناصب علمية رفيعة، ومكَّنها من الظهور فى الحياة العامة أديبة عربية مبدعة، ومفكِّرة إسلامية أصيلة حُجَّة، اتخذت مكانها المرموق فى الموقع العلمى والفكرى للأمة الإسلامية[٣].

وعن عملها الصحافي وإخلاصها لفكرها يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل الصحافي والمفكر السياسى:"عرفناها مؤمنة مقاتلة فى سبيل فكر أعطته عملها وعمرها، وتفانت فيه إلى درجة التوحد والفناء[٤]".

---

(١) المرجع السابق،ص ١٢٢، ١٢٣.
(٢) بنت الشاطئ من قريب، حسن جبر، ص ٢٣٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥١.
(٤) بنت الشاطئ، رحلة فى أمواج الحياة، وفاء الغزالى، ص، ص ١٣١، ١٣٢.

أما عن إحساسها واهتمامها بقضايا عصرها وبني جنسها، فيقول الكاتب الكبير أحمد بهجت:"كانت الدكتورة عائشة عبد الرحمن رمزًا من رموز العلم الدينى والاستنارة والوعى بالمشكلات المعاصرة التى تهدد المسلمين" (١).

وعن تاريخها الحافل بالأمجاد العلمية والنضال الفكري السديد يقول د. محمد رجب البيومي:" إن جهد د. بنت الشاطئ في شتى وجوه المعرفة الإنسانية:أدبًا ونقدًا وعلمًا وفنًّا يدل على أنها لم تُضع وقتًا ما من عمرها السعيد، وهي ربة بيت تحمل أعباء الأسرة، وشجون الأمومة، ولكن نشاطها الفكري كان شاغلًا لها أيَّ شاغل عن الاستسلام إلى ما وُوجِهت به من نكبات لا تخلو منها حياة إنسان، فاستراحت إلى الفكر، ناجية بنفسها من تداعي الشجون وصراع الآلام، ولابد أنها صابرت حتى صبرت، ولعل دراستها لكتاب الله كانت بلسمًا يشفي الجراح، ويبرئ الكلوم، فهي في هذا المجال أُسوة خُلقية، كما هي في دنيا الفكر أُسوة علمية، ولم أجد في الكاتبات الجامعيات من حملت مشعل التوجيه الديني في حرص ودأب كما حملته عائشة عبد الرحمن(٢)".

وبهذه الشهادات وغيرها والتي شهد بها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والصحافيين لبنت الشاطئ، تزيدنا يقينا بأن بنت الشاطئ كانت نموذجًا يقتدى به لعالمة وأديبة ومفكرة وكاتبة وإنسانة قلما يجود الزمان بمثلها.

والحقَّ أقول إنني عندما قرأت سيرتها الذاتية أعجبني إصرارها، وأدهشني نضالها وجذبني أسلوبها كما أثرت فيَّ قصة حبها الخالدة، لكن الأكثر من ذلك أنه لما قرأت بعض مقدمات كتبها أيقنت أنني أمام قلم يحاسب نفسه قبل أن يخط حرفًا، وأدركت أنني بين يدي مَلَكة فريدة وموهبة قوية عبَّدت لنفسها طريقًا وسط الصعاب، ووضعت لنفسها مكانًا بين الكبار كالعقاد وطه حسين وميخائيل نعيمة

(١) المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي،٦/٥٥ وما بعدها.

والزيات وشكري وحسين هيكل.. ليس في كتابة الذات فحسب، بل في صياغة الفكر والشهادة على العصر والقدرة على النقد والتعبير وخدمة العربية والإسلام والمحافظة على تراث الأمة.

الوفاة:

وقد فقدتها الساحة الإسلامية والعربية في الأول من ديسمبر ١٩٩٨م، وهي في الرابعة والثمانين من عمرها، مخلفةً سيرة حافلة بالكفاح، ومسيرة مزينة بالعطاء والوفاء. وودعتها مصر في جنازة مهيبة حضرها العلماء والأدباء والمثقفون الذين جاءوا من شتى الدول، ونعاها شيخ الأزهر وأمَّ صلاة الجنازة بنفسه.

ولعل في هذه الإطلالة المقتضبة –وفق طبيعة البحث– ما يدلنا على معالم رحلة من الكفاح والصمود والعزيمة والعطاء التي جعلتها في مصاف العظماء، ووضعتها في مقدمة النجباء، وجعلت سيرتها جديرة بالبحث وحقيقة بالدرس.

المبحث الثاني: دوافع كتابة بنت الشاطئ لذاتها.

من سنن كُتاب الذات أن تنطوي كتابتهم الذاتية على حقائق نفسية وحياتية، وقد وظفوا سيرهم الذاتية لإخراج المكتوم وإظهار المستور، إضافة إلى التوثيق التاريخي للواقع والشخصيات.

ووجود دوافع وراء كتابة السيرة الذاتية مقوم من مقومات نضجها، وملمح من ملامحها الفنية، فالسيرة الذاتية –عادة– تكتب تحت تأثير بواعث عديدة ودوافع متداخلة قد يقصدها الكاتب مجتمعة، وقد لا يقصدها، ولعل دافِعَيِ التبرير والاعتذار هما من أبرز هذه الدوافع[1]، ويلحق بهما دوافع أخرى متعددة مثل:التعرف على الذات، والتعريف بها وبإنجازاتها؛ طلبًا للرضا عن النفس، وكذلك قد يكون الدافع هو مراجعة الذات رغبةً في سرد بعض جوانب الضعف والقصور رغبةً في مواجهتها والتخلص من آثارها، وقد يكون الدافع مبنًّا على

(١) ينظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص ٤٦.

التوجهات الفكرية والثقافية والروحية، كما يكون الدافع أيضا هو مجرد الحنين إلى الطفولة السعيدة واسترجاع الذكريات واستعذابها.

كما يكون الدافع إلى تدوين السيرة الذاتية هو الإعلان عن تحدي الحاضر، والثورة على الواقع والرغبة في الانتقام منه.

إضافة إلى أن السيرة الذاتية قد تكتب لتحقيق أهداف تربوية وتعليمية رغبة في توعية القراء، ودفعهم إلى أخذ العظة والعبرة من صروف الأيام، وتوجيههم إلى نشود المثالية، ويكون تقديم الكاتب لذاته بمثابة مثال يحتذيه الشباب، ويقتدي به، وكما أن الرغبة في الشهرة وطلب المال قد تكون أيضا من ضمن هذه الدوافع.

وهكذا تتعد حوافز ودوافع كتابة الذات وتتداخل في أحيانٍ كثيرة، وتتفاوت في درجة سيطرتها وأهميتها ومركزيتها من سيرة ذاتية لأخرى.

وقد يصرح الكاتب لذاته بدوافعه وقد يخفيها، ومع ذلك " تظل الغاية محلقةً في أجواء سيرته كلها، ولا نقف على صورتها الجمالية إلا بعد الفراغ من قراءة سيرته الشخصية[١]"، ولكن يمكن للقارئ المتعمق تبين كثير منها، وذلك من خلال إدراك إلحاح هذه الدوافع على نفس الكاتب، فلا ينفك من تصويرها بين فينة وفينة، وتطل من ثنايا كتاباته.

فبأي دوافع كتبت بنت الشاطئ سيرتها؟

لم تصرح كاتبتنا أو تفصح عن دوافعها لكتابة ذاتها وسرد مسيرتها، لكن في طوايا السطور وحنايا الكلمات بدا للباحث جانبٌ من دوافع بنت الشاطئ لكتابة سيرتها الذاتية.

وما دامت السيرة الذاتية في جوهرها رحلة استدعائية تتردد بين الماضي وأصدائه، والحاضر وتجلياته، كشفًا عن القوة الدافعة للتطور والتميز، والتي لا يمكن استجلاؤها إلا عن طريق قص الكاتب أحداث حياته.

---

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ص٤٥.

وعليه فلا يمكن تحديد الدوافع أو تخمينها إلا من خلال قراءة متأنية ونافذة لما كتبته بنت الشاطئ.

ولا يخفى على قارئ الكريم أن إحياء الذكريات القديمة، والعودة إلى زمن الطفولة يُعد احتماءً بالماضي وبحبوحبته، وهروبًا من الحاضر وشقوته، تستعيد الكاتبة أماكنَ كانت بالنسبة إليها في تلك الفترة المبكرة مغمورة بإشراق فريد، بل كانت جنة الحلم الأول من فرط حضورها في مخيلتها.

وقد ظلت تلك اللحظات تلاحقها في حلها وترحالها حتى سجلتها في سيرتها، وعلى هذا تمضي بنت الشاطئ في تذكر ووصف بيئتها الأولى، فتعمد إلى ما بقي عالقًا بالذاكرة من تلك الأيام الخالية، فتقول:" أعود إلى طفولتي الباكرة، فأسترجع من ذكرياتها ما لم تطوه الأيام والليالي في متاهة النسيان(١)"، ولعل في ذلك ما يوحي بأن هاجسًا داخليًّا سيطر على ذهن كاتبتنا يلح عليها بالكتابة، وفي حسباني أنه الخشية من النسيان وتذكير الأجيال بماضيها وحياتها قبل أن تعجز الذاكرة عن تذكر ما بقي من وميض أضواء الماضي المنصرم، فالكتابة عن تلك الحقبة من العمر محاولة لرصد واسترجاع ما علق في الذاكرة، فحان الوقت لرصده قبل أن يوغل الوهن في الذاكرة، وقبل أن يطالها النسيان فتتلاشى تلك الصور، إنه سباق مع الزمن ومحاولة إيقافه؛ لتؤرخ لذاكرة مجتمع في حقبة كان فيها ينهض ويتغير، وتكون سيرتها بمثابة شهادة على العصر.

فكاتبتنا تعود أدراجها إلى بداياتها الأولى وطفولتها – في إدراك لقيمة عالم الطفولة وتأثيره في خط الحياة وسلوكيات الفرد– وقد ظهر ذلك جليًّا في اختيارها لاسمها المستعار واستنباطه من بيئتها الأولى حيث تقول: "ولم يطل بى التفكير فى اختيار الاسم المستعار، بل كان أول ما خطر على بالى هو أن أنتمى إلى

(١) على الجسر، ص١٤.

الشاطئ مهد مولدى، وملعب طفولتى، ومدرج حداثتى، ومجلى تأملاتى، والمسرح الذى شهد مأساة فاجعة قيدتنا إليه بقيود لا فكاك منها"[١].

ولم لا؟ فالحنين إلى الماضي مقترنٌ بزمن البراءة والطفولة، وذكريات المكان الأول؛ حيث خطَّت الذات أولى خطواتها في الحياة، وتصور ذلك، فتقول: "وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سياق الفصول التالية من قصتنا، غير أني أريد لألتقي فيها بتلك الصبية التي حملت ملامحي الأولى، وأُميز في آثار خطاها تلك المرحلة التي أسلمتها إلى دربه من حيث لا تدري[٢]".

ومما لا شك فيه أن هذه العودة لتلك المرحلة المبكرة تمنح السيرة الذاتية تكاملًا وترابطًا بين مراحل حياتها، وأطوار شخصيتها، في تدرج وتنامٍ للسيرة الذاتية يجعلها مترابطة الأواصل، متماسكة الأطراف.

كما يغدو فعل التذكر لدى كاتبتنا أبعد من التلذذ باستعادة الذكريات؛ إذ يتحول إلى سؤال وجودي عن سر هذا الشغف والتعلق بمنازل الخطوة الأولى لدى الإنسان، حيث تقول:"وأنا أكتب هذا بعد أن تمت القصة فصولًا على مسرح الدنيا، ولست أدري ما إذا كنت فيما أروي من فصلها الأول متأثرة بما أعرف من بقيتها، غير أني أحاول أن أستعيد ماضيَّ كما كان، حريصةً على ألا تتداخل المشاهد وتختلط الذكريات [٣]".

ولعلنا مما سبق نكون قد خلصنا إلى الغاية الأولى من غايات كتابة الذات عند بنت الشاطئ.

---

(١) على الجسر، ص ٦٠. المدرج والمَدْرَجةُ: المَذْهَب والمسلَكُ والنشأة، وَيُقَالُ لِلصَّبِيِّ إِذا دَبَّ وأَخذ فِي الْحَرَكَةِ: دَرَجَ. لسان العرب، مادة(درج) ٢/ ٢٦٦، مجلى أى مُظِهر ومُخرِج وكاشف، وفي التنزيل والنهار إذا جلاها، وجَلَوْت أي أوضحت وكشَفْتُ. وجَلَّى الشيءَ أَي كَشَفَهُ. وَهُوَ يُجَلِّي عَنْ نَفْسِهِ أَي يُعَبِّرُ عَنْ ضَمِيرِهِ. وتَجَلَّى الشيءُ أَي تكشَّف، لسان العرب، مادة(جلا) ١٤/ ١٥٠.

(٢) على الجسر، ص١٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

ولا غرو أن كتابة الذات بمثابة حياة ثانية، وذلك حين يستعيد الكاتب حياته الأولى رغبة في التمتع بذكرياته، وعلى أن كاتب السيرة الذاتية –غالبا– يظهر في نصه حاجته الملحة في كتابة سيرته لغاية اجتماعية أو تاريخية إلا أنها في الباطن – من وجهة نظري– محاولات يائسة للانتصار على الزمان وفواجعه، ورغبة جامحة في إيقاف مرور الأيام، وإخضاعها للرجوع إلى الوراء، فرارًا من سطوة الحاضر وشبح المستقبل، وتعبر عن ذلك، فتقول: "تتماحى الحدود والفواصل بين الحاضر المفجع، والماضي السعيد الحافل، والغد المحجب في ضمير الغيب المطوي في غيابة المجهول، وتتداخل الأبعاد والآماد؛ حيث أقف على الجسر ما بين الحياة والموت[1]".

كما أن السيرة الذاتية تكتسب قيمتها من وعي الكاتب ذاته بأهميتها، فالحياة التي يرويها وعاشها مؤلفها يجب أن تكون جديرة بأن تروى، فهو لا يكتب سيرته إلا عندما يعتقد أن حياته قد حفلت بما يجعلها كفيلة بأن تظهر أمام الناس سواء جاهر بذلك أو تستر عليه، والبوح عن كوامن كاتب السيرة الذاتية والتعبير عما لاقاه في مسيرة الحياة كثيرًا ما يسترعي عاطفة المتلقي؛ ليعي حجم التحديات التي مرت بها الذات، وكيف تجاوزت تلك المحن والشدائد، بل إن الصورة التي تحاول الذات ترسيخها في ذهن المتلقي تنطوي على صورة البطل الذي تحدى الصعاب وجاهد النفس على تجاوز الإحباط والضغوط، فكانت ثمرة ذلك الجهد الصورة التي أصبحت عليها الذات زمن الكتابة، ولأن المتلقي لايدرك عن الذات المكتوبة إلا ما استوت عليه؛ كان لابد من سرد مسار حياتها؛ ليدرك عظم هذه الذات وبسالة هذه النفس، فيشارك الذات مشاعرها ويستعظم مسرتها وطموحاتها، وتصبح الصورة الحاصلة للكاتب عن نفسه هي الصورة التي سيرسمها ويثبتها في قلوب المتلقين؛

(١) المرجع السابق، ص٨.

ليقرؤوها جيلًا بعد جيل، ومن ثمَّ سيكتب لهذه الذات البطولية الخلود، وهذا ما يجعل الذات تشعر بوجودها وترضى عما حققته.

وقد كان من دواعي كتابة بنت الشاطئ لسيرتها أن " توضح هدفًا معينًا، وهو الدرب الذي سلكته حتى التقت بأستاذها في الجامعة المرحوم أمين الخولي، فارتبطت حياتها به بعد ذلك[١]"، وقد عبرت بنت الشاطئ عن ذلك في ثنايا سيرتها، وإن لم تصرح به، فمثلا تقول عن معاناتها في دخول الجامعة: "وفيما كنت أمارس هواية الكتابة، وأحمل عبء عملي في كلية البنات، وعبء تحرير مجلة النهضة النسائية وإدارتها، تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا، وتقدمت لامتحانها من المنزل، وهكذا مشيت على الدرب الوعر، فكلما قطعت شوطًا منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفيةً عن التقاليد الساهرة على حراستي؛ كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لي، وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية، التي ما وضعت إلا لتحول بين أمثالي من أبناء الطبقة الشعبية، وبين اجتياز الطريق الموصل إلى الجامعة، حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة إلى باب الجامعة، أحمل شهادة البكالوريا أدبي التي ظفرت بها صيف عام ١٩٣٤مع قلة الناجحين من منازلهم، وهناك ألفيت الباب موصدًا في وجهي بقضبان من فولاذ..... ولمدى عام كامل بقيت واقفة تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم، لم يكن قد بقى لي إلا أن أنكص على عقبي وأكر راجعة من حيث أتيت، لكني لم أفعل[٢]"، فهذه واحدة من معاركها في طريق دراستها، نقلتها بتفاصيلها؛ لتكون صورة من كفاحها، ونموذجًا يحتذى لمن جاءوا من بعدها، وأرى

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٩٢.

(٢) على الجسر، ص٦٠، ٦١. ريم: الرَّيْمُ: البَراحُ، وَالْفِعْلُ رامَ يَرِيمُ إِذا بَرِحَ. يُقَالُ: مَا يَرِيمُ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَي مَا يَبْرَحُ. ابْنُ سِيدَهْ: يُقَالُ مَا رِمْتُ أَفعله وَمَا رِمْتُ الْمَكَانَ وَمَا رِمْتُ مِنْهُ. ورَيَّمَ بِالْمَكَانِ: أَقام بِهِ.لسان العرب مادة (ريم)١٢/ ٢٥٩

أن ذلك لا يتم إلا إذا قنع الكاتب بخطوات رحلته، وما شيده في مسيرته، لأن كتابة السيرة الذاتية المتكاملة تستدعي لدى كاتبها الإحساس بالرضا عما أنجزته عبر مسيرة العمر.

ولقد أدركت بنت الشاطئ سر تفوقها، في سنٍ مبكرة، وازداد إيمانها ويقينها بأن بركة القرآن وصلاح النشأة الدينية وراء هذا التفوق.

عرفت ذلك قبل أن تبلغ سن العاشرة عندما ارتبط بوجدانها حلم رأته فى هذه السن، وشكل ذلك وجدانها وتوجهها الروحي، كما أَثَّر فى مجرى حياتها تأثيراً كبيراً، تقول: "رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاور لمكانى، ويعطينى لفافة خضراء، ثم يحلق عاليًا فى السماء، ولما فتحت اللفافة وجدت فيها مصحفًا شريفًا لم تكن عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامةً وبهاء"(١).

وهذه النزعة أكدت عليها وذكرت أكثر من موقف يبرهن عليها، بل ارتضتها منهجًا وعقيدة ردًّا على من ينكرون صوفيتها الحالمة "وأطوي حشدا من ذكريات العامين التاليين بالمدرسة والبيت والقرية؛ لأقف عند ذكرى بعينها تشبثت بوجداني في إلحاح، وأثرت في مجرى حياتي تأثيرا بعيد المدى، ومنها امتد خيط طويل غير مرئي ما بين ما كان لي في الجامعة وبين مقعدي في مدرسة اللوزي الأميرية بدمياط(٢)"، ولابد من أخذ هذه الإشارات والتوجهات في كتابة السيرة بعين الاهتمام، وعدم التقليل من شأنها أو تجاهل أهميتها في مسيرة الكاتب، وأنها كانت تمنحه الرضا والارتياح، كما أنها بمثابة مصدر معرفي قيم، " وإذا ما رمنا وضع الرؤى والأحلام والكرامات في سياقها الأدبي المناسب، فإن من الضروري فهم مكانتها في السياق الإسلامي العريض، حتى نتمكن من تقدير الوظيفة التي تقوم

(١) على الجسر، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩.

بها هذه المكونات في السير الذاتية التي ترد فيها..... ولم تكن مصدر إيحاء وإلهام فحسب، وإنما هي وسيلة يستطيع الكاتب من خلالها معرفة العالم المجهول إذ تستطيع هذه الرؤى التنبؤ بمستقبل الكاتب في الدنيا والآخرة(١)".

ولا يخفى على القارئ الكريم أن انتقاء الموضوعات التي تسردها كاتبة الذات عن أحوالها الماضية تخضع لظروف الكتابة الراهنة، ورؤية الذات للحياة، وقد حاولت كاتبتنا نقل تجربتها الروحية لقارئها كمحاولة لرفع مستوى اليقين عند المتلقي بالجانب الروحي الذي كانت تؤمن به، وتسير في حياتها على هداه " فكاتب السيرة الذاتية عندما يعرض تجربة حياته أمام القارئ ويصف شخصيته ويحلل مواقفه، وهو في الوقت ذاته يدفع المتلقي إلى تأمل نفسه هو الآخر ومراجعة تجربته، وذلك بفعل تأثير الكاتب على متلقيه فهو يقف أمامه يستكشف ذاته، ولكن بوعي متقدم على وعي لحظة الذات المسترجعة(٢)".

وترد كاتبتنا نزعتها هذه إلى البيئة والتنشئة، فتقول:" وكنت بحكم نشأتي في بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير، وتجسم تهاويل الخيال، ثم بحكم بنوتي لشيخ متصوف يَعُدُّ الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق الوجدان، أقول: كنت بحكم ظروف نشأتي وبيئتي أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى، فلما صحوت من نومي أدركت – عن يقين – أن حياتي كلها مرتبطة بهذا المصحف؛ هدية السماء إليَّ فى رؤياي(٣)".

وقد تفاءلت بنت الشاطئ بهذه الرؤيا، ولم تعد تتخلف عن مجالس العلم ولا عن خلوة أبيها بالجامع الكبير، وترى كاتبتنا أن حياتها لم ترسم وفقًا لرؤيا عابرة في صباها فحسب، بل تؤكد أن مسيرة حياتها قد مضت وفق نشأتها فى بيئتها،

---

(١) كتابة الذات، دراسات في السيرة الذاتية د.صالح معيض الغامدي، ص٩٢، وما بعدها.

(٢) دوافع كتابة السيرة الذاتية في الأدب العماني، مقال بجريدة الوطن العمانية، للكاتب نصيب الصبحي، بتاريخ ٢٠١٦/٣/١٦م

(٣) على الجسر، ص٣٠.

وبناءً على ميراثها النفسي والعقلي، خاصة أن حلمها جاء من صميم واقعها، ومن عميق ثقافتها، " ومن رؤيا الصبا هذه امتد الخيط غير المرئي بين ذلك الشوط الأول على شط النهر، وبين ما انتهى إليه طريقي العلمي من تلمذتي للأستاذ أمين الخولي، وتخصصي في دراسة النص القرآني على منهجه، أقول هذا وأنا أتمثل نفرًا من قومي يهزون رؤسهم حين يسمعون ما أروي من حديث رؤياى، استنكارا لتأثري بحلم عابر في منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر، ولو نشأوا في مثل بيتي، وتلقوا ما تلقيته من ميراثها النفسي والعقلي لما أنكروا من الأمر شيئا [١]".

وهكذا تلقي البيئة بظلالها على وجدان كاتبتنا، كما يبدو دور الموروث الثقافي واضحًا في تكوين شخصيتها واندفاعها نحو كتابة سيرتها وإثبات نزعتها وتوجهها، فتقول في معرض حديثها عن دخول الجامعة: "وكنت حتى تلك المرحلة أتعامل مع الدنيا بمنطق بيئتي المتصوفة، وأتلقى العلم بعقليتها وأمارس الحياة بذوقها ومزاجها، وأفسر الوجود بمنهجها الإشراقي المهلم، ولم يخذلني هذا الموقف فيما واجهني من مواقف حرجة وأسرار غامضة في طريقي إلى الجامعة[٢]".

ولا يخفى مدى تأثر الفرد بعوامل الوراثة والبيئة، كما أنه لا يصح دراسة أي شخصية بمعزل عن مجتمعها، وعوامل تكوينها الوراثية والبيئية، بل يجب " دراسة الشخصية من خلال دراسة المجتمع والثقافة؛ لأن الشخصية تنهض – أصلًا – على مقومات اجتماعية وثقافية[٣]".

ولا بد أن ينظر إلى الشخصية المتميزة من حيث اجتماع عدد من العناصر أو عدد من المكونات الأساسية فيها، " فهى حاصل جمع كل الاستعدادات

---

(١) على الجسر، ص٣٠.

(٢) السابق، ص٧٥.

(٣) البطولة بين الشعر الغنائى والسيرة الشعبية عنترة بن شداد نموذجًا، محمد أبو الفتوح العفيفي ص١٠،ط/ إيتراك للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠١م.

والميول والغرائز والدوافع والقوى البيولوجية الفطرية الموروثة، كذلك الصفات والاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة(١)".

ولا يخفى ما للجانب الإيماني من أثرٍ قويٍ في تكوين شخصية الإنسان، ومن بواعث تكوين شخصيته وتحوله من شخص ضعيف إلى شخص قوي، بل تصل به إلى حد البطولة " فلا ريب أن الإيمان بالله يقف على قمة البواعث التي تبعث على البطولة، ذلك أن الإيمان الحق قوةٌ مبدعةٌ خلَّاقة إذا مست القلوب بسحرها اهتزت بأروع الشمائل، وربت بأجل الخصائل، وأنبتت من البطولة أجلها تضحيةً وفداءً، وأسخاها بذلًا وعطاءً، وأبقاها على الدهر(٢)".

وتذكر بنت الشاطئ من ذلك اليقين بالعناية الإلهية بها عندما لم يكفها الوقت لمراجعة كتاب "تاريخ أوروبا الحديث" المقرر على السنة الثالثة الثانوية فأخذتها سنة من النوم فرأت فيما يرى النائم أن سؤالا عن مارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني سيأتى فى الامتحان، تقول: " وصحوت من غفوتي فلم أتردد في مراجعة هذا الفصل الذي كان قد فاتني من الكتاب واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه، وحين وزعت علينا أسئلة التاريخ في الصباح التالي لم أعجب لصدق الرؤيا وازددت يقينًا بأن الله معي على الطريق(٣)". وعندما أوصدت الجامعة أبوابها أمام طموحها في الدراسة بنظام الانتساب، لم تيأس ولم تستسلم بدافع من نزعة إيمانية داخلية أمدتها باليقين والثبات، تقول في ذلك: " هاجس خفى يلقى فى روعى أننى فيما سلكت من طريق إلى الجامعة، وفى إصرارى على الوقوف عند بابها المغلق إنما أنفذ مشيئة عُليا لا سلطان عليها لأحد من البشر، والأمر فيما بقى متروك لتلك المشيئة القادرة التي تملك وحدها أن تقرر مصير هذه الجولة وتوجه إرادتي إلى حيث أراد الله لي.

(١) الثقافة والشخصية، سامية حسن الساعاتي ص ١٢٠.ط/ دار النهضة العربية،ط٢ بيروت ١٩٨٣.
(٢) البطولة،عبد الرحمن رأفت الباشا، ص ٢٣، ط/ دار الأدب الإسلامي١٩٩٦ م.
(٣) على الجسر، ص٥٤.

وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر فى دوامة القلق والحيرة، فيحميني من السكون إلى راحة اليأس، كما كان يردنى إلى شيء من سكينة النفس وراحة الضمير كلما ساورني الخوف من عاقبة عصياني لوالدي التقي الصالح[١]".

ثم في يقين وإيمان ترد أحوالها إلى المشيئة الإلهية، وقد كان هذا اليقين الإيماني الراسخ حاديها في رحلتها الشاقة المتعثرة، وزادها في حربها الضروس" وما كنت لولا مشيئته تعالى لأستطيع أن أجتاز وحدي تلك المفاوز الضيقة والسدود الصعبة والمنحيات الخطرة على طريق تائه المعالم ملتوي المسالك خابي المنارات، كلا، ولا كان في طاقتي أن أقتحم التيه الموحش في خضم الدنيا بلا زاد للرحلة غير الشوك والعلقم، وبلا دليل غير المخاوف والهواجس والظنون[٢]". وتقول في موضع آخر:"أحاول أن أستجلي كنه تلك القوة الخفية التي تسيرني وتوجهني فلا أجد لها تفسيرًا إلا أنها إرادة الله الغالبة ومشيئته النافذة [٣]".

وإذا كانت تجارب الأديب في الحياة ليست كلها روحية، لكن التجارب الروحية من أشدها حثًّا على كتابة السيرة الذاتية، فالكتابة في السيرة الذاتية مرتبطة بالدافع الديني الذي يمنح صفاء النفس ويؤدي إلى وضوح الهدف من الحياة بدرجة أكبر، ويساعد في إقامة علاقات شخصية أفضل، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن انتشار التصوف له دور هام في كتابة السيرة الذاتية لا سيما ذات الطابع الروحي[٤] .

ولم تتوقف كتابة الذات عند بنت الشاطئ عند كونها رافدًا مهمًّا لصناعة عمل إبداعي، بل يتجاوز نطاق السيرة ذاتها، ليحلق في آفاق أرحب فكريًّا وجماليًّا،

---

(١) على الجسر، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣، ٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٦٨.

(٤) ينظر: كتابة الذات، د.صالح معيض الغامدي، ص٥١.

فكتابة السيرة الذاتية تنهض بالأساس على تقديم عصارة أو خلاصة تجربة أو تجارب إنسانية عاشها الكاتب لذاته.

وربما تكون الرغبة في أن يقول الكاتب شيئًا عن نفسه وعن البيئة التي نشأ فيها، وعما لاقاه في حياته من أحداث، وربما يريد أن يؤشر على أحداثٍ معينة ووقائعَ محددة في حياته، ويرغب في أن يطلع الآخرون عليها، وهذا سبب آخر من أسباب كتابة السيرة الذاتية، وقد نوهت بنت الشاطئ إلى هذا بقولها:" لعلها الحياة التي أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع من الزمان، تفسيرًا آية الله العظمى فينا، خلقنا (مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا[١] [٢])" .

وإذا كانت التجارب العاطفية والروحية دافعة لكتابة الذات، فكذلك الآلام النفسية من الدوافع ذات الأهمية في تبلور فكرة تدوين السيرة الذاتية، ومن عوامل نجاحها وخلودها، بل هي من أشدها حثًّا على كتابة السيرة الذاتية، " فالآلام النفسية التي نعانيها هي التي تخلع على وجودنا الشخصي كل ما له من فردية وأصالة، وفي العصور التي تزدهر فيها كتابة السيرة يصبح الألم دافعًا إلى كتابتها من بين الدوافع المؤثرة؛ إذ إن الألم هو الذي يضطر الذات إلى أن تخلع على حياتها معنى... ويمكن القول إجمالًا إن الألم كدافع لكتابة السيرة الذاتية أداة فعالة تزيد من خصب حياتنا الروحية، وتعمل على صقل شخصيتنا، لكن بشرط أن نجعل منه تجربة ذاتية تزيد من عمق حياتنا الباطنية، وتكونَ أداةَ تربيةٍ أخلاقيةٍ لنفوسنا[٣]".

وقد ابتليت بنت الشاطئ في غمار رحلتها مع الحياة بمحازن كثيرة، وصدمات متتالية جعلتها أشد صلابة وأقوى عودًا على مجابهة الأحداث ومقارعة الأيام، ولعل الألم هو الذي صنع بنت الشاطئ، تألمت من رفض والدها لاستكمال

(١) سورة النساء– ١.

(٢) على الجسر، ص١١٧.

(٣) أدب السيرة الذاتية، د. عبد العزيز شرف، ص١٧، باختصار.

دراستها في كل مرحلة حتى أعياها الرفض وأرَّقها الصد، تتحدث عن مشكلتها الأولى مع التعليم ورفض والدها إلحاقها بالمدرسة الأميرية، فتقول:" ومضت أشهر ذات عدد، وأنا أتابع بنات الحي ببصري وقلبي في رحلتهن اليومية إلى المدرسة، ثم أخلو في لياليَّ المسهدة إلى الهم والحسرة، وزهدت في الدنيا بقدر ما يحتمل عمري الغض، وبان عليَّ من الذبول والشرود والانطواء ما جعل أمي تفزع إلى جدها تلتمس منه النصيحة والرأى[١]"، ثم أصابها الأسى لمرض جدها وبقائه مقعدًا في بيته بسبب إصراره على استكمال تعليمها، ونزاعه مع والدها، فعاشت معه محنته المرضية وأرهقها الشعور بعقدة الذنب، فتفانت في خدمته، ولازمت غرفته وقامت على حاجته[٢].

ثم تطلعت –متحديةً كلَّ دواعي اليأس والقنوط – إلى الدراسة بمدرسة المعلمات بالمنصورة، وأدت امتحان القبول للسنة الثانية فيها، وهي تقهر في أعماقها شعور الخوف من الوالد، ذلك الشعور الذي عاودها بضراوة وحدَّة أثناء عودتها إلى دمياط بعد الانتهاء من الامتحان. [٣]

ثم كان لسحب والدها أوراقها من مدرسة المنصورة دون علمها شعور أليم، تصف تأثير ذلك عليها، فتقول:" فجُنَّ يأسي وأمسكتُ عن الطعام حتى خِيف عليَّ من الموت"[٤].

ومازالت آلامها وأتراحها تسابقها عند كل باب طرقته لمواصلة مشوارها العلمي، فبعد تنازل أبيها عن قراره، والإذن لها باستكمال دراستها، إلا أنها تفاجأت بأن فصول المدرسة استكملت عددها، ولم يعد لها مكان فيها، وتم توجيهها لمدرسة معلمات حلوان، غير أنها وجدت عقبة جديدة في حلوان بأن المدرسة ليس فيها

(١) على الجسر، ص٢٧.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٣٢.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص٣٥.

فصول إلا للسنة الأولى، ورغم موافقتها على الالتحاق بالسنة الأولى وتنازلها عن حقها في الالتحاق بالسنة الثانية، إلا أن لوائح الوزارة آنذاك لم تعتد بتنازلها ورفضته، تصف هذه اللحظة الفاجعة فتقول:" وغشيني ما يشبه الدوار لحظةً كانت نفسي خلالها تفتش عن خيط من الرجاء يعصمني من الانهيار[١]"، آلمتها الصدمة وأوجعها فقد الأمل، فاستسلمت للقنوط وأمضت أيامًا تعسة منطوية على نفسها تجتر أوجاع الصدمة، غير أن بصيص الأمل في التحاقها بالفرقة الثانية بمدرسة طنطا عكر صفوه أنه كان مرهونًا باجتيازها الكشف الطبي الذي أسفر عن ضعف بصرها، فعادت منهارة من اليأس[٢] ، حتى بعد قبولها بمدرسة معلمات طنطا لم يبرح عنها الألم ولم يفارقها الحزن، فعند عودتها لبلدها بعد انتهاء امتحان النقل إلى السنة النهائية، وجدت أن جدها لأمها قد مات دون أن تودعه وهو من كان يحميها من غضبة أبيها، ويتشفع عنده في تعليمها، ووجدت أباها قد عاوده الرفض لاستكمال دراستها، وأن أسرتها مهددة بالانهيار بسبب صرامة وصلابة أبيها في الأمر، فأعيتها المحنة وأثرت في صحتها، تصف ذلك بقولها:" أصبت بانهيارٍ عصبي أعيا الرقاةَ والأُساةَ دواؤه، فانقطعتُ عن المدرسة، وتقرر شطب اسمي من سجل طالباتها، لعجزي صحيًّا عن الانتظام في الدراسة [٣]"، وعلى أنها أنهت هذه المرحلة بالدراسة من المنزل؛ لتحل مشكلة رفض أبيها، إلا أن ما بعدها من مراحل كان يتطلب الانتظام في الدراسة، فعدلت عن ذلك الخط الدراسي إلى الابتدائية ثم الثانوية؛ حيث يتاح فيها الانتساب والامتحان من المنازل دون حاجة إلى انتظام، وبعد اجتيازها الثانوية رُدَّت نتيجة امتحانها – مع نجاحها بتفوق– لأن اللوائح تفرض أن تُمضي في المرحلة ثلاث سنوات، وظلت هكذا حتى حصلت على البكالوريا خفية في خيفة وترقب، فتقول

(١) على الجسر، ص٣٩.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

(٣) المرجع السابق،ص٤٣.

عن ذلك:" وهكذا مشيت على الدرب الوعر، فكلما قطعت شوطًا منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستي كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لي.... حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة إلى باب الجامعة[١]".

لم تتوقف عذابات بنت الشاطئ عند ذلك الحد، بل كانت لها معاناتها الجديدة داخل الجامعة، حيث انتابتها حالة من التحدي والصدام مع مجتمع الجامعة ولوائحه، فتقول:"وهناك ألفيت الباب موصدًا في وجهي بقضبان من فولاذ، كنت على يقين من استحالة دخولي الجامعة طالبة منتظمة كيلا أبوء بلعنة من غضب والدي الذي ما شككت في أنه بحيث يبرأ إلى الله مني لو فعلتها، واللوائح الجامعية لا تعترف بنظام الانتساب... ولمدة عام كامل بقيت واقفة تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم، لم يكن قد بقى لي إلا أن أنكص على عقبي وأكر راجعة من حيث أتيت، لكني لم أفعل [٢]".

هذه الجوانب المؤلمة من حياتها قابلتها بنزعة إيمانية عميقة، وجلدٍ وصبر كنموذج للمكافحة الصامدة التي أصقلتها الأحزان وأنضجتها الآلام، إلا أنها كانت على موعد آخر مع الألم الفاجع والوجع الكاسر، وذلك برحيل رفيق دربها وملهم إبداعها ومؤسس منهجها، تعبر بعبراتها عن تلك المرحلة البالغة من أحزانها، فتقول: " كيف مضى وبقيت؟ أهو ابتلاء لإيماني ببشرية الإنسان، إذ أشهد الموت يغتال من كان يعطي الحياة حياة، ويفيض عليها جمالًا من شجاعته وحكمته وذكائه وفروسيته؟

تلك إذن تجربة أخرى نكابدها، فيكون منا الحي الميت والميت الحي ....أم لعلها الحياة التي أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع من الزمان، تفسيرا آية

(١) على الجسر، ص٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

الله العظمى فينا، خلقنا(من نفس واحدة وخلق منها زوجها) أم لعله القدر أراد أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة، فأبلوا حزنها الأكبر كما بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى....أسفا !! كل الذي كان من حياتنا معا انتقل إلى منطقة الأحلام والذكريات، والذي بقي في نطاق الواقع هو هذا المشهد الفاجع بكل عمقه الغائر وأبعاده المترامية[١]".

ولما كانت السيرة الذاتية هي ابنة المكان والزمان والذات في تجلياتها المختلفة، في أفراحها وأتراحها، وفي آمالها وآلامها، وبما أن الألم يشكل في نظرية الإبداع الأدبي القيمة الأشد توترًا(تجربة ورؤيا لدى المبدع) (وأداة إمتاع ومؤانسة لدى المتلقي)، فالإبداع فضاء رحب يحتمل كل ما فيه من انزياح أوعدول، حتى لو تعلق الأمر بالألم ذاته، فلحظة ولادة مولود جديد، شديدة الألم لكنها منتجة للحياة، وهو أيضا جزء من مسار حياة لا ينفصل عنها، لذا فالأهم لديها ليس الألم في حد ذاته، وإنما دوره التأثيري، وما يطبعه على النفس ونتاجها.

وقد عبّرت بنت الشاطئ عن آلامها بلغة فيها من التحدي والمواجهة مع ما فيها من شجن وألم وإحساس بالنهاية.

ويتبين للباحث من خلال استعراض هذه الدوافع أن كتابة الذات عند بنت الشاطئ صارت معادلًا للنجاة، فهي فعل وجود تتأسس عليه أكثر المعاني فعالية في قهر الزمن وذلك عبر الديمومة التي تمنحها الكتابة لوجود الإنسان بعد فنائه ماديا، لأن الكتابة – من وجهة نظري– تجعل الكائن البشري قادرًا على قهر ضعفه أمام الآلام والفراق، وقد لعبت دورًا تأثيريًّا في تقليل فاعلية الغياب النهائي لبنت الشاطئ، فقد استطاعت أن تخلق لنفسها حيوات جديدة وذاكرة متجددة مع كل قارئ لسيرتها، وصارت من خلال كتابتها لذاتها حية خالدة على حد قول

(١) المرجع السابق، ص١١٦، ١١٧.

الفرنسي تودروف :"ما الإنسان إلا محكي، ولكي يمكن للشخصيات أن تحيا عليها أن تحكي[١]".

وربما كانت دوافع كتابة السيرة الذاتية لدى القدماء والمحدثين متشابهة، وهي فكرة ترك أثر يبقى، وتستطيع الأجيال القادمة أن تلمسه، وتستفيد منه؛ لكن الطريقة التي يستعيد بها المحدثون سيرهم تفتح مساحة واسعة للمراجعة الخيالية مع الذات أحياناً، وللرد والانتقام أحياناً ممن أعاق رحلتهم.

وهذه الاستعادة تحركها دوافع قوية، محسوسة أحياناً، وغير محسوسة أحياناً أخرى[٢].

كما أن من الدّوافع البارزة في سرد الذّات رغبة صاحبها في تحليل الواقع ونقده، وهذه الرغبة نستشفّها من مواقف الإدانة لكلّ ما لا ترضى عنه ذاتها من الآخرين كالجامعة ونظمها، أو صورة المدينة ومجتمعها، وكل ما فيهما من صراعات وتناقضات.

ومن هنا فإن كتابة الذات من خلال (على الجسر) تعد – من وجهة نظري– إضافة نوعية لجنس السيرة الذاتية، ورافدًا ثرًّا للمكتبة العربية، فقد استطاعت فيها بنت الشاطئ محاورة النفس، مستفيدة من الدوافع الإنسانية لكتابة الذات، معمقة – من خلال الأداء الفني والانتقاء الموضوعي– فكرة تأصيل الإنسان في المكان والزمان ؛ كما استطاعت إثراء هذا اللون الأدبي بأساليب تعبير جذابة، وهذا ما تقف معه الصفحات القادمة.

---

(١) الناس – المحكيات ألف ليلة وليلة، تزفيتن تودوروف، ترجمة: الصديق بوعلام، مجلة الكلمة العدد ١٣٩ نوفمبر ٢٠١٨م.

(٢) كتابة السيرة الذاتية من أدب الاعتراف إلى استدعاء الذكريات، مقال بجريدة الشرق الأوسط للكاتب حمدي عابدين، العدد رقم(١٥٢٨٦) (٤أكتوبر ٢٠٢٠ م).

الفصل الثاني

آليات السرد وتقنياته في

سيرة بنت الشاطئ.

المبحث الأول: مقومات بناء السيرة الذاتية عند بنت الشاطئ.

استخلصنا في سابق الصفحات جانبًا من دوافع كتابة الذات عند بنت الشاطئ، ومن الجدير بالذكر أن وجود دافع أو أكثر من هذه الدوافع عند الإنسان – مع أهميتها– غير كافٍ لجعله يكتب سيرة ذاتية متكاملة.

ولكي يستطيع الإنسان كتابة سيرته الذاتية، لابد له من امتلاك موهبة فنية تساعده على ذلك؛ لأن وجود الدوافع أو التجارب وحدها لا تؤهله لكتابتها، فليس بمقدور كل إنسان أن يكتب سيرته الذاتية إلا إذا امتلك ناصية الفن، "وقيمة الفن هنا تأتي من عملية الصياغة ، فلا يكفي أن تكون أمامنا كومة من الأحجار والأخشاب والحديد حتى نتصور بيتًا، ولكن التشكيل هو الذي يعطي هذه المواد روحًا، ويخلقها خلقا، وبغير أساس فني يتداخل الزمان والمكان، وتتبعثر الأحداث، فتتشوه وتخرج السيرة في شكل أوصال ممزقة أو ذكريات مقطعة[١]".

ومن ثَمَّ لا تصير السيرة الذاتية ذات قيمة فنية وأدبية عالية إلا إذا كتبت وفق دوافع صاحبها، وصيغت بأسلوب فني منمق، ووضعت في إطار مناسب لشخصية صاحبها وأحداث حياته، فالسيرة الذاتية " تعني بتصوير العالم الفكري للمترجم لذاته وتفسر سمات هذا العالم، وخصائصه ومقوماته، وهي تعكس ما عانوه في سبيل تثقيفهم الذاتي[٢]". ومن خلالها يصور دوافعه نحو كتابتها، ويحدد توجهه الفكري، وأطوار حياته وأحداثها، وما ورثه وما اكتسبه، وما انفعلت به نفسه وما قرَّ في أعماقها وما انعكس على سلوكها، وواقعه الذاتي وتطوراته، وهذه

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٥٠.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحي إبراهيم عبد الدايم ، ص١٠١.

الأمور في جملتها ما يشكل مضمون السيرة الذاتية، فما السيرة الذاتية عندي إلا مجموعة من تجارب الحياة صيرها صاحبها الأديب نصًّا مقروءًا، وما كتابة الذات إلا مهارة التعبير عن المشاعر والانفعالات وتحويلها إلى أفكارٍ مقروءة.

ولكي يبقى نص السيرة حيًّا غضًّا ذا فضاء مفتوح؛ لابد له من مقومات تمنحه الحيوية والبقاء، وعتبات تسيّج النص وتميزه عن غيره وتعيّن موقعه في جنسه، وتحث القارئ على اقتنائه وقراءته، ومن أهمها ما يأتي:

المطلب الأول: الاعتماد على الإمتاع والتشويق:

يستطيع الكاتب المبدع أن يجعل من سيرته نصًّا ممتعًا مشوقًا يدفع القارئ إلى متابعة النص مع سابق علمه –غالبًا– بنهاية السيرة وختام المسيرة لمن يقرأ له، لاسيما إذا كان الكاتب ذائع الصيت مطبق الشهرة، ولكنه قادر على أن يغري القارئ بالمواصلة ودفعه إلى السير مع الكاتب وتنقله في أفياء السيرة حتى النهاية في لهفة وتحفز، "ويتطب ذلك في النص الأدبي إحكام المنهج، والقبض على مجموعة من الوسائل الفنية التي تجعل المتلقي في حالة استبطان مستمر، بما هو محكوم في قراءة النص بجلال الفكرة، وطرافة المعالجة، وسحر الأداة [(١)]" ومن خلال التنسيق البديع في جمع المادة عن الشخصيات، والأحداث والوقائع وترتيبها وتشكيلها، إضافة إلى الأسلوب الرفيع في صياغتها.

وإذا ذهبنا نفتش في سيرة بنت الشاطئ وجدنا أن عوامل التشويق والإمتاع عندها متعددة، من أبرزها:

أولاً: العنوان (عنوان السيرة وعناوين فصولها)

يقوم عنصر التشويق في النص الأدبي بوسائل وأساليب متعددة، أولها التركيز على **اختيار العنوان** اللافت الجاذب لانتباه القارئ؛ لاسيما وأن ذهن القارئ

(١) أساليب التشويق في المقال الأدبي عند الرافعي. د.عبد الحميد بدران، حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثاني والثلاثون – ص١١٠٥، سنة ٢٠١٧م.

ينجذب إلى الظواهر الخارجية قبل تعمّقه في المضمون، كما أن العنوان يمثّل مفتاحًا إجرائيًّا نستطيع من خلاله النفاذ إلى عوالم النص، وفكّ أسراره سواء أكان النص نثرًا أم شعرًا، كما تكمن أهميّة العنوان بحسبانه نصًّا مصغرًا ينهض بوظائف شكلية وجمالية ودلالية، وهو بمثابة الرأس للنص تدلّ على محتواه العام، وتغري القارئ به، فهو أول ما يرقع الآذان، ويلفت الانتباه ويستثير عين القارئ، وهو رسالة أسلوبية تعرّف بهويّة النص، وتحدّد مضمونه، وتجذب القارئ إليه، وتغويه به، " فالعنوان يعكس حمولة مكثّفة للمضامين الأساسيّة للنّص، وهو صورة النّص مصغرةً على صفحة الغلاف، لذلك عدّه الدارسون نظامًا سيميائيًّا له أبعاد دلالية، وأخرى رمزية، تغري القارئ بتتبّع دلالاته، ومحاولة فك شفراته الرامزة، بغية استجلاء المفاهيم النّصية المتراكمة داخل الحيز النّصي[١]".

وعليه تتّضح أهمية العنوان، بحسبانه مرآةً للنسيج النصي، ومحفّزًا على القراءة، وبؤرة غواية للمتلقي، ومفتاحًا في التعامل مع النص في بعديه الدلالي والرمزي، كما أنه " من أهم العتبات النصية الموازية المحيطة بالنص الرئيس، حيث يسهم في توضيح دلالات النص، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية إن فهمًا، وإن تفسيراً، وإن تفكيكاً، وإن تركيباً، ومن ثم فالعنوان هو المفتاح الضروري لسبر أغوار النص، والتعمق في شعابه التائهة، والسفر في دهاليزه الممتدة[٢]". وإذا كان الأمر كذلك فإلى أي مدى جاءت دلالة العنوان في سيرة بنت الشاطئ؟ وكيف حقق الارتباط المطلوب بينه وبين النص؟ وكيف كان لصياغته بأسلوب فنيّ تأثير في القارئ؟

لقد كانت بنت الشاطئ – من وجهة نظري– موفقة بل حاذقة في صياغة عنوان سيرتها الموسومة بـ**(على الجسر– أسطورة الزمان)** فغرابة العنوان والبعد

(١) مقاربة دوافع الكتابة في سرد الذات– مقال بمجلة الخليج بتاريخ ٢٠١١/٩/٢م.

(٢) سيميائية العنوان في النصوص الإبداعية– مقال بمجلة الزمان للكاتب فوزي هادي الهنداوي، بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٦م.

عن توقع القارئ منح العنوان الجدة والطرافة، وجذب الانتباه، بل الاندهاش مع تأكيده على مضمون السيرة، وتحفيز القارئ للإحاطة بتفاصيل النص وفكرته العامّة.

كما جاء العنوان مرتبطًا ارتباطًا عضويًّا بالنّص الذي يعنونه، يعكسه بدقّة، حيث جاء على رأس النّص ليعرّفه وينوب عنه، نص صغير بمثابة صورة عاكسة لآخر كبير، وفي صورة اختصاره يشكّل درجة عالية من الاقتصاد اللّغوي والتركيز التعبيري تشدّ انتباه المتلقي، وتشوقه للاطلاع على مضمونه، فهو أول عتبات النص التي يلج من خلالها القارئ إلى فضاء النص، والتحليق في أجوائه والتطرق إلى محتواه، كما نستشفّ منه نوع النصّ ومضمونه، ومن هنا كان للعنوان دورٌ في تفعيل عملية القراءة من جهة، واختصار مضمون النص كاملاً من جهة أخرى؛ حيث نهض العنوان بمهمة التعريف بالنص، وجاء عنواناً صغير الحجم لكنّه نّصٌّ موازٍ.

وقد ذكرت في مدخل سيرتها (الجسر والأسطورة) كأبرز مصطلحين في العنوان توضيحًا وكشفًا عن المصطلحين، فتقول:" على الجسر– أسطورة الزمان تجلت فينا ولنا وبنا آية الله الكبرى الذي خلقنا فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد الذي لا يتجزأ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا، وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر! [1]".

وهكذا جاء عنوان سيرة بنت الشاطئ، مشوقًا ومعبرًا وملخصًا لحياة مديدة، مفعمة بالتجارب، مترحة بالآلام، ودافعًا محفّزا للقراءة، ومفتاحًا لاستكشاف مدلولات ومقاصد السيرة، وإزاء هذا التأثير الذي حقّقه العنوان عند تلقي النّص بفعل خاصيّته التثقيفية الموجّهة للقارئ، فقد أدّى وظيفته التواصلية بين النص وقارئه.

(١) على الجسر، ص٥.

كما حمل قيمة ضمنية مصاحبة لما تضمّنه من طاقة إيحائية من خلال جمل قصيرة بالجر والمجرور (على الجسر) أو بالمركب الإضافي(أسطورة الزمان) وكأنه يقول لقارئه: إن العمر لم ينته بعد، ومازال فيه بقية للتذكر والاعتبار وإن صار مبتدأً ليس له خبر كجملتها.

وتبدو الإشارات الدلالية على ارتباط العنوان بالنص، فنجدها في مقدمة سيرتها قد وقفت تشرح الجسر الذي تقف عليه؛ لتزيل ما عند القارئ من غرابة في التسمية أو غموض في المحذوف من كلا التعبيرين – وإن كانت من خلال تلك الغرابة لفتت انتباه القارئ وكسبت اهتمامه– فتقول في صدر سيرتها:" على الجسر ما بين الحياة والموت أقف حائرةً ضائعةً في أثر الذي رحل، أُطِلُّ من ناحيةٍ فأجده ملء الحياة، وألمح طيفه في كل من حولي وما حولي من معالم وجودنا المشترك..... وعلى الجسر ألتفت إلى الناحية الأخرى؛ حيث المصير المحتوم لكل حي، لا عاصم منه ولا مفر، فأدرك بملء وعيي أنه عبره قبلي إلى نهاية الشوط وغاية المطاف، وأسترجع بيقظة مروعة ومرهفة خطوته الأخيرة على المعبر.....أستعيد هذا كله وأستحضره وأسترجعه بيقظة واعية، فأترنح على الجسر ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى..[١]".

وبهذا كشفت عن جسرها الذي تقف عليه، والممتد بين الحياة والموت تنتظر لحظة رحيلها عن الدنيا عبر هذا الجسر للاجتماع بشريك دربها، حيث " تتماحى الحدود والفواصل بين الحاضر المفجع، والماضي السعيد الحافل، والغد المحجب في ضمير الغيب المطوي في غيابة المجهول، وتتداخل الأبعاد والآماد؛ حيث أقف على الجسر ما بين الحياة والموت[٢]"، كما عبرت من خلال الجسر عن آلامها وأحزانها وحيرتها في دنيا الفقد " إلى أن يحين الأجل سأبقى محكومًا عليَّ

(١) على الجسر، ص٦.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

بهذه الوقفة الحائرة على المعبر ضائعةً بين حياة وموت، أنتظر دوري في اجتياز الشوط الباقي، وأردد في أثر الراحل المقيم: عليك سلام الله إن تكن عبرت إلى الأخرى، فنحن على الجسر[١] "، وفي هذه الجملة تكشف عن مقصودها بالجسر، وكأنه رمز لانتظار اللقاء والرحيل عن الفناء إلى البقاء.

وما بدأت به سيرتها ختمت به وكأنه من رد العجز على الصدر وترابط المقدمة بالخاتمة(بشكل دائري)، تقول في نهاية سيرتها: "وعلى الجسر ما بين الحياة والموت في متاهة الحيرة والضياع لا أكف عن رصد حركاتي وإحصاء أنفاسي مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا! مرددة مع كل نفسٍ:كيف مضى وبقيت؟![٢]".

وفي قصديتها (بعد عام) التي ختمت بها السيرة –على غير عادة كُتاب السير– تقول:

ومضى عام وما زلت هنا ،،، أنقل الخطو على الجسر إليك

..... ،،، .....

هل مضى عام وما زلت هنا ،،، أنقل الخطو على الجسر إليك؟

أبأنفاسك أحيا أم ترى ،،، مات بعضي وبكى بعضي عليك؟[٣]

هذا، ولم تتوقف جمالية العنوان عند بنت الشاطئ في كتابتها لذاتها عند العنوان الرئيس، بل إن **عناوينها الداخلية** تنم عن امتلاك ناصية التعبير والتأثير والجذب، من خلال عناوين ذات طابع مشوق، يدفع القارئ للمواصلة والتعمق في السيرة، كما أنها تُعَدُّ عتبةً قرائيةً تحدد الأجزاء الصغرى الداخلية، وتوحي بمضامينها، وتربط بينها ترابطًا تامًّا، فجاءت عناوين فقرات حياتها المنتقاة في سيرتها على النحو التالي: (على الجسر– قبل أن نلتقي – في الطريق إليه – في

(١) المرجع السابق، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ص١١٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٦.

منطقة الضباب – ظلال وأضواء – موعدي معه – اللقاء – معًا على الدرب – ثم مضى وبقيت – دنيانا بعده) جمل قصيرة مركزة إما بالحذف أو التجريد مما يمكن الاستغناء عنه، بعيدة عن الغموض والرمزية؛ لأن الكاتبة – في غالب ظني– أرادت لهذه العناوين أن تُكوِّن آصرةً قويةً بين أجزاء سيرتها حتى تصير متلاحمةً مترابطةً، وهذا ما يجعلها مؤثرة ومثيرة لذهن القارئ من خلال صياغة لفظية مميزة تحمل شحنات دلالية ووجدانية، دافعة على قراءة النص، بل إغوائية بمواصلة المعايشة حتى نهاية الرحلة، في تشوق ولهفة دون ملل أو فتور، فمن وظائف العنوان " اختزال وتجميع وإظهار لما هو مطوي وخافٍ من المقاصد، وهو إيحاء بشيء ووعد به، وبما أنه كذلك فهو يغري المتلقين ويثيرهم للاطلاع على محتويات النص(١)"، من خلال العديد من علامات الاستفهام التي تثار في ذهن القارئ، والتي يسببها العنوان، فيُدفع منقادًا إلى دخول فضاء النص بحثاً عن إجابات لتلك التساؤلات، لاسيما إذا كان النص سيرة ذاتية ذات طبيعة مشوقة وعجيبة في عالم الحزن الممتع، والمأساة المثيرة.

ثانيًا:الانتقاء:

لكتابة الذات أدوات أسلوبية وآليات تعبيرية يستوجب على كاتب السيرة معرفتها عند تدوين وقائع حياته في واقعة ورقية هو من المسلم به في هذا الفن، ومنها إدراك بنية السيرة الذاتية وأسلوبها الفني، والقدرة على اختيار المواقف الأنسب للذكر، والوقائع الأحرى بالتدوين، وذلك مرهون بالغاية التي من أجلها كُتبت السيرة الذاتية.

هذا، ويصنع مرور الزمن وتقدم العمر حالة من السكينة والتأمل تمكن الشخص من الوصول إلى إدراك أعمق لأحداث حياته التي تركت نتائجَ وآثارًا يمكن صياغتها والتعبير عنها بأسلوب مختلف أكثر شمولية ودقة؛ ذلك لأن

(١) سيميائية العنوان في النصوص الإبداعية– مقال بمجلة الزمان للكاتب فوزي هادي الهنداوي.

"ممارسة كتابة الذات تقوم على نوع من التعارض بين زمنين: زمن الأحداث وزمن الكتابة، وكثيرًا ما يضفي زمن الكتابة على زمن الأحداث ما لم يكن حاضرًا في ذهن الشخصية حينئذ، فهو قد يرفع من شأن أحداثٍ وقعت له صدفة، ويجعلها تمهيدًا أو سببًا للحياة التي استوى عليها، بل إن المؤلف يعمد إلى انتقاء الأحداث التي لعبت دورًا أساسيًّا في تكوين شخصيته، وهذا يجعله يتخطى أطوار حياته، ولا يلتزم الترتيب الزمني لمسارها[١]"، ومن ثَمَّ لابد من تنقية السيرة الذاتية من كل ما قد يُساء فهمه من قبل القراء، لأن الصورة التي يرسمها المؤلف لنفسه في سيرته " لن تكون في هذه الحال إلا صورة مخترعة، وليس مبدأ الانتقاء المتعمد الواعي بمقاصده هو وحده الذي يؤدي إلى الابتكار والاختراع، فدواعي التأليف وأسبابه تضطلع هي الأخرى بتلوين الصورة المبتكرة وتحدد البعض من ملامحها، لاسيما أن السيرة الذاتية لا تكتب اتفاقًا وبختًا، بل تكتب حاملةً في تلاوينها إستراتيجية مؤلفها في علاقته بالمتلقي وغاياته ومقاصده[٢]" .

وقد سارت بنت الشاطئ في رسم سيرتها على هدى من ذلك، وفق غايتها من كتابة سيرتها تنتقي الأحداث الأبرز في حياتها (في طفولتها ومراحل دراستها، وفي حياتها الزوجية) تاركة الكثير من التفاصيل والأحداث التي لو دونتها – من وجهة نظري – لجاءت سيرتها في أكثر من مجلد سواء في رحلتها العلمية والعملية، أو معاركها الأدبية والفكرية، أو حياتها الأسرية، لكنها أكدت وركزت على أحداثٍ بعينها رأت من وجهة نظرها أنها الأجدر بالذكر، والأهم للقارئ عن غيرها، والأنسب لغايتها من كتابة سيرتها، والملائمة لوقفتها على الجسر، "وأي كاتب يُقدم على كتابة سيرته الذاتية أو أي عمل أدبي آخر، لديه بالتأكيد دوافع خاصة؛ سواء

(١) دوافع كتابة السيرة الذاتية في الأدب العماني، مقال بجريدة الوطن العمانية، للكاتب نصيب الصبحي، بتاريخ ٢٠١٦/٣/١٦م.

(٢) فتنة المتخيل– فضيحة نرسيس وسطوة المؤلّف – محمد لطفي اليوسفي، ١٦/٣،ط/المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،٢٠٠٢.

جمالية أو نفسية، أو حتى الرغبة في التعبير عما يعتمل داخله، ولا يجد شكلاً أدبياً ملائماً له سوى السيرة الذاتية، وكل ما يكتبه عن حياته يحمل وجهة نظره ورؤيته للعالم خاصة، فهو ينتقي الزوايا والأحداث والأسلوب الذي يساعده على إيصال وجهة نظره [١]".

وكاتب السيرة – في غالب الأمر– لا يذكر من الأحداث إلا ما له قيمة، ولا يدون إلا ما آلمه كثيرًا، أو سره طويلًا؛ نفضًا لهموم النفس، أو تصبرًا على أحداث الدهر، أو إمتاعًا لها باستعذاب الذكريات، وهذا الانتقاء أسهم في إمتاع القارئ من خلال التركيز والإيجاز الذي اتسمت به سيرة بنت الشاطئ، فكان عامل جذب لمواصلة القراءة ومعايشة الأحداث.

المطلب الثاني:البناء المرسوم الواضح:

تتشابه السيرة الذاتية مع الرواية والقص في كونها عملًا أدبيًّا يميزه البناء الفني، إلا أنها ليست مجرد سرد من الراوي للأحداث بقدر ما هي حديث النفس وعبرة الزمان، يبوح بها كاتبها لبني جنسه، ومن ثم تحتم ليكتمل العمل فنيًّا، ألا تكون السيرة الذاتية مجرد كتاب تأريخ لعصر أو مصر، وألا تكون مجموعة من الأحداث المبعثرة التي جمعتها الذاكرة دون أن يكون بينها رابط ، بل استوجب ذلك أن تكون لها مقومات من بينها البناء الفني المحكم، الواضح المعالم، المتسق المترابط ، المنسجم مع الأحداث وشخصية الكاتب.

وقد تميزت سيرة بنت الشاطئ بالتكامل[٢] كما عمل الزخم الفكري والرصيد المنهجي للشخصية إلى جانب رقي اللغة ورشاقة المفردات ورصانة الجمل على تشييد هذا البناء الفني الناضج الذي يحمل في طياته كفاح الكاتبة وهمومها، ولعل ذلك – من وجهة نظري– ما جعل السيرة لم تفقد التماسك ولم تصب بالترهل، أو

(١) كتابة السيرة الذاتية من أدب الاعتراف إلى استدعاء الذكريات، مقال للكاتب حمدي عابدين.

(٢) ينظر :السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٤٥.

التفكك؛ خاصة وأن كاتبتنا صاحبة منهج تعلمته من أستاذها الخولي، والتزمت به ودافعت عنه وعاشت له، فلا غرابة أن تأتي سيرتها وفق نهجٍ فنيّ عالٍ أنتج بناءً فنيًّا واضح المعالم، وهو شرط رئيس في نجاح كتابة الذات، فكاتب السيرة" لا يجمع أكوامًا من المعلومات غير المنسقة، ولا يكتب يوميات لا بأس فيها بالتكرار، ولا بالتفاهات، فكاتب اليوميات يمكن أن يمتعنا بالحديث عن وجبة، بينما كاتب السيرة الذاتية رغم التزامه بعرض صغائر التجارب يختار وينتقي وينسق، ويحلل ويربط، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يكون فوتوغرافيا في رصده يعرض علينا مجموعة الصور، وعلينا نحن أن نبحث عن الوحدة بينها ونتعمقها، ونقيم من خيالنا إطارًا يجمعها، ولكنه يعرض علينا سيرته خصبة حية كما عاشها، يعرض علينا قصة حياته كما مثلها، يعرض علينا سيمفونية رائعة لم يوضع اللحن الواحد بجانب الآخر إلا تبعا لقوانين الانسجام، ولم تختلف النغمة عن النغمة شدة ونوعًا إلا حسب ما تقتضيه قواعد التأليف، وبذلك يدخل الإطار الفني؛ ليقيم جسرًا من الخيال تَعْبر فوقه الحقيقة وهو هنا عنصر جوهري، ولكنه في الوقت نفسه محدود بحدود الحقيقة، توازن دقيق بينهما لا يطغى فيه الخيال أبدا على الواقع والحقيقة، بل لا يزحزحها عن موقعها غير أنه قد يلونها بألوان الطيف فيزيدها بريقًا، ولكنه لا يغير معالمها[١]".

وقد وظفت كاتبتنا كل قدراتها ومواهبها التعبيرية والفنية لصناعة بناء فني متماسك، رتبت فيه الأحداث والمواقف وأدوار الشخصيات إلى جانب الأثر الإنساني، وكلاهما (الأثر الإنساني مع البناء الفني) منح سيرة بنت الشاطئ التميز والبقاء لا سيما وأن شخصية بنت الشاطئ من الشخصيات ذات الحضور الكبير والمؤثر في وعي الأمة الجمعي علميًّا وفكريًّا.

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٤٩.

كما أن المطالع لسيرة بنت الشاطئ يجد أنها استطاعت بمقدرتها الفنية أن تنسق بين أحداث حياتها، وتربط بينها حتى بدت سيرتها في طابع روائي وإن لم تقصد ذلك، وبدا القالب الفني الذي صاغت فيه رحلتها جامعًا بين التفسير والتصوير" وهو أسلوب يجمع بين طريقة المقالة التفسيرية التحليلية، وبين طريقة الرواية الفنية القائم على التصوير للمواقف والتجارب والأماكن والمشاهد والشخصيات الحقيقية، تصويرًا يعتمد على عناصر الفن الروائي، كالحوار الأدبي الموجز والاستعانة بقدر ضئيل من الخيال لربط أجزاء الحقائق في سيرته الذاتية.... وبالتشويق والسرد القصصي المتمثل للحقيقة تمثلًا مطابقًا لها على نحوٍ يثير المشاركة الوجدانية بين المترجم لذاته، وبين المتلقي، ويجلب له المتعة التي يجلبها له العمل الأدبي(١)".

وقد جاءت سيرة بنت الشاطئ في بناء فني متناسق وقالب صياغي ماتع وجاذب جمعت فيه بين حالتها الوجدانية، وحركة نفسها، وتصوير الحقائق في دقة وأمانة، ولعل براعتها وتمرسها في كتابة المقال طوال مسيرتها – ومن سن مبكرة– أعانها على إتقان وبراعة هذه الصياغة، فجاءت سيرتها – كما ذكرنا– متكاملةً متماسكةً ليس في الترتيب والتركيب فقط، بل في الروح والمزاج والتنقل بين أحداث وأجزاء حياتها، مع عذوبة العبارة، وبث الحياة والحركة في صورها التي صورتها للبيئة من حولها أو لخلجات نفسها ومكامن وجدانها، والتزام الحقيقة في ذلك مع الالتزام بالخيال المقيد الذي يضفي على صورها التماسك والجاذبية، ومن ذلك تصويرها لمراتع طفولتها على شاطئ دمياط:"حين بدأت أعي خطواتي على الدرب، كنت في ملعب طفولتي على شط النيل بمدينة دمياط العريقة، حيث يقوم بيت جدي لأمي الشيخ (الشيخ إبراهيم الدمهوجي الكبير) مطلا على النهر، عتيقًا

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحي إبراهيم عبد الدايم ، ص١٣٠، ١٣١ باختصار.

شامخًا تضرب أسسه الصخرية في ماء النيل، ويمتد الأفق أمامه، من ناحيتي الشمال والغرب، فسيحًا رحبًا إلى غير مدى..

وعلى حافة النهر، أمام الدور الأرضي، شرفة بمعرض البيت، تفضي من جانبيها إلى الماء بسلالم من حجر، تنكشف درجات منها تباعًا عندما ينخفض مستوى النهر في موسم التحاريق، ثم تغمرها مياه الفيضان فلا يكاد يبدو منها غير أطرافها العليا..

والمدخل الشمالي للشرفة يفتح بباب على رصيف عريض ممتد إلى مسافة طويلة، مرسى للسفن الشراعية حين تئوب من رحلاتها عبر البحر المتوسط إلى بلاد الشام وقبرص والأناضول، فيشدها الملاحون بسلاسل إلى أوتاد حديدية مثبتة على الرصيف، ويمضون بعد تفريغ حمولتها لقضاء أيام مع أهلهم بالمدينة وشطوطها...[1]".

ففي هذه اللوحة التي رسمتها لبيئتها الأولى، والتي يبدو فيها التركيز وصدق النقل وبراعة التصوير وأمانته، والإحساس بالزمان والمكان، والكتابة عنهما بتنسيق يواكب تطورهما، مع جماليات التعبير ونكهته، وهي أدوات فنية التزمت بها كاتبتنا طيلة سيرتها، وتميزت بها في كتابة ذاتها، يعيش معها القارئ في تتابع ونهم، لاتضاح أبعاد الشخصية وأفكارها، عبر الأمواج المتلاطمة التي مرت بها في حياتها، في وحدة وتسلسل للأحداث يسلم الحدث أخاه، والوقائع تتوالى، وعلى إثرها توالت الحركات في جنبات السيرة الذاتية؛ مما زادتها تماسكًا وتلاحمًا.

وقد مازجت بنت الشاطئ بين التصوير الخارجي والداخلي، فصورت بيئتها بدقة وإبداع كما مر في النص السابق، وكذلك صورت حركة نفسها الداخلية برقة وتفنن، ومن ذلك تصويرها لطوايا نفسها وحركاتها الباطنية إبان حديثها مع الشيخ دسوقي جوهري بعد صدمتها من مجتمع الجامعة، فتقول: " وقد أدرك ببصيرته

(١) على الجسر، ص١٤، ١٥.

الذكية ما أعاني من صدمة مباغتة؛ إذ ينطلق بي حديثه وراء الدائرة المغلقة التي كان يعلم أني أعيش فيها، وأتصور أن العالم كله ينطوي داخل نطاقها، وعدت إلى دارنا ساهمةً واجمةً ألتمس خلوة بالمكتبة ريثما أجمع شتات نفسي المبعثرة.

وأمام خزانة كتبنا جلست أحدق في الكنز الغالي الذي أوشك أن أراه مستباحًا لموازين جديدة محدثة، وأحاول أن أهرب من حيرتي بالمطالعة في كتب العلماء الذين ألفت صحبتهم، فيختلط كلامهم في مسمعي بصوت الشيخ دسوقي جوهري وهو يحدثني عن حق هذا الجيل في أن يبدأ من حيث انتهى سلفه، وحق العصر في أن يضيف جديده إلى تراث العصور الخالية.

ولأول مرة منذ صحبت أولئك العلماء من أئمة السلف الصالح بدأت أتساءل في أسى:هل يأتي يوم أتخلى فيه عنهم، وقد كانوا مني ملء العقل والروح؟ ولأول مرة كذلك بدأت أرتاب فيما اطمأننت إليه من أنني على وشك تصفية حسابي مع الجامعة.... وتكاثفت الظلال على الأفق مختلطة بالأضواء التي سطعت بغتةً من حديث الشيخ الجليل، فكشفت لي مناطق مجهولة وراء حدود دنياي المقفلة بحواجز ظننتها آخر حدود العالم.

وتشابهت السبل عليَّ في هذا المفترق من الطرق، فلم أعد أدري أي هذه الحواجز يبقى راسخًا في موضعه، وأيها يريد أن ينقض! فليستجب الله لدعاء أبي وليأخذ بيدي على الطريق[١]".

وهكذا استطاعت بنت الشاطئ أن تشيد بناءً فنيًّا قويًّا وخالدًا من خلال الاعتماد على التصوير مع" المزاوجة بين الانفتاح على الداخل والخارج، على الخارج في المنظر والحركة، وعلى الداخل في المشاعر وانعكاس الأحداث على النفس، مع الخيال الذي جعلت الظروف له مكانًا فسيحًا رحبًا ينبئ عن مستقبل

(١) على الجسر، ص٧٧.

أغلب الظن أنه من النوع الأدبي، وقد بقي الخيال يظهر هنا في السيرة مغلفًا الحقيقة ولا يؤذيها[١]".

وعلى هذا النسق من التصوير والتعبير سارت بنت الشاطئ في سيرتها من بدايتها إلى نهايتها ملهبةً حماس القارئ من خلال ما أبدعته في صورة عمل فني كبيير متماسك ومترابط وفق الأسس الفنية لبناء السير الذاتية.

ولا ننسى اللمحة الفنية من رد العجز على الصدر (الشكل الدائري) ببداية سيرتها بوقفتها على الجسر، وختامها بنفس الوقفة كإشارة إلى الغاية الكبرى من كتابة سيرتها، والفكرة المسيطرة على عقلها ووجدانها، مع المراوغة بين الزمنين الحاضر والماضي في سلاسة ووعي، وكنوع من إحكام وتماسك البناء الفني للسيرة الذاتية عند كاتبتنا ووحدته.

المطلب الثالث: الصراع

كانت شخصية بنت الشاطئ شخصية قلقة جياشة متمرسة بالمصاعب صامدة غير مستسلمة، ومن ثَمَّ تنامى عندها الصراع، وبدا حاضرًا في دروب حياتها من البداية حتى النهاية، وفي هذه الصراعات المتنوعة الألوان والمتعددة الدرجات ظهر العمق النفسي والوجداني في سيرتها، والصراع سمة من سمات النفوس المبدعة التي تشغل التجارب والصراعات جزءًا كبيرًا من حياتها " فحياتنا الإنسانية عميقة متسعة الجوانب؛ لأنها خاضعة دائمًا للتطور والتغيير القائمين على صراع الفرد مع ذاته من ناحية، ومع بيئته من ناحية أخرى[٢]".

كما أن الصراع أبرز ما يميز السيرة العظيمة، ذلك الصراع الذي يؤثر في عمق وأصالة العمل الأدبي وخصوبته، بل يصيره نتاجًا جديرًا بالمطالعة والتأمل والبقاء، فمن مقومات السيرة الذاتية الرفيعة أن تشمل جانبين أصليين " جانب

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٩٠، بتصرف يسير.

(٢) حول الأديب والواقع، د. عبد المحسن طه بدر،ص ٤٣،ط/ دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٠.

إنساني وجانب فني، ويتجلى الجانب الإنساني في عمق الصراع الداخلي أو الخارجي بمعنى أن حياة كل إنسان تعتريها فترات من الركود، فإذا كثرت هذه الفترات حتى طبعت الحياة لم تكن للسيرة الذاتية قيمة كبيرة، ولكن الحياة المليئة بالصراع هي التي تستحق التسجيل والقراءة(١)".

لذا صار الصراع عنصرًا ضروريًّا في كتابة الذات، يدفع السرد إلى الأمام ويجبر القارئ على المعايشة للنص ومواصلة القراءة حتى النهاية في شغف ونهم.

ولا يخفى أنه لم يفارق الكاتبةَ الإحساسُ المزدوجُ بين الحنين للماضي، والاستشراف للمستقبل الممزوجُ بالألم والأمل، والفرار من واقع مجدب وحاضر منطفئ، وقد ظلت هذه الأحاسيس ملازمة لبنت الشاطئ في كل مراحل عمرها لا سيما الحقبة الأخيرة منه، ومرت بتجارب ممتدة على مساحات طويلة من عمرها كجدلية الرفض عند أبيها لإتمام تعليمها النظامي، أو صراعها مع الأنظمة التعليمية للوصول للجامعة واستكمال دراستها بالانتساب، أورحلتها في الوصول إلى لقاء شيخها، ثم ألم الفراق وتباعد الديار بينها وبين زوجها، كل تلك الصراعات صنعت من سيرة بنت الشاطئ أنموذجًا بديعًا وراقيًا في فن كتابة الذات، لأن الصراع بدا في أوله صادمًا، لكنه في الوجه الثاني لعملته بدا صاقلًا ومدربًا، بل مطورًا للشخصية، فجاءت سيرتها موسومة بالعمق والأصالة، مثرية للقارئ شاحذة للهمم، كاشفة عن مواطن من النفس البشرية في صراعها مع الحياة والأحداث، وما ينتابها من حالات نفسية وشعورية إزاء ذلك، تتحدث تحت عنوان: **في منطقة الضباب** (بما يوحيه العنوان من ظلال كثيفة للتيه والقلق والتشتت الذي عانته الكاتبة): "ما أزال أكتب من بعيد مطلةً من وقفتي على الجسر على آثار خطاى قبل أن ألقاه إذ أغذ السير فوق دربي عبر المفاوز الحرجة والمنحيات الخطرة في طريقٍ تائه المعالم خابي المنارات، بغير زادٍ إلا الهواجس والمخاوف

(١) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٤٩.

والظنون، وبغير دليل إلا اليقين بأني أسير موجهةً بمشيئة عليا اصطفتني لتجربة صعبة تمتحن بها طاقتي على الصمود والاحتمال، وتبلو مدى استعدادي لاجتلاء السر المحجب، المضنون به على غير أهله[١]."

في هذه السطور تنقل بنت الشاطئ تصويرًا لصراعاتها النفسية وتجاربها الإنسانية (الداخلية والخارجية) عبر رحلتها الطويلة المليئة بالقلق والعثرات، فتقول عن صراعها النفسي من ردة فعل أبيها لالتحاقها بمدرسة المعلمات:" وأديت الامتحان الأول للسنة الثانية، وأنا أقهر في أعماقي شعور الخوف من والدي حتى إذا فرغت منه وأخذت أول قطار إلى دمياط عاودني ذلك الخوف الذي أفلحت في مقامته لمدى أيام، فعاد أقسى ضراوة وحدة[٢]"، فالكاتبة تكشف عن صراع شديد ومعاناة من والد يؤثر موت ابنته على ألا تحيد عن طريق العلم الذي ينشده لها، ووهبها له[٣] ، كما أنها كانت تصارع نفسها فيه من ناحية أخرى عندما كان يساورها الخوف من عاقبة عصيان الشيخ التقي الصالح صاحب الكرامات والمناقب وهو أعز ما كانت تدخر لدنياها وأخراها، فتقول:" لم أكن بحال ما أستهين بمخالفتي لما يريد لي والدي العالم الورع المتصوف، بل لعلي كنت أوثر أن أموت ولا أعصي له أمرًا في السر أو العلن [٤]".

ففي هذه الوقفات أو المحطات من حياة كاتبتنا يبدو الصراع الداخلي محتدمًا وأواره في داخلها مشتعلًا بين رغبة ورهبة، بين نفس تواقة للعلم، وقلب أواب إلى رضا الأب، وهكذا صهرها الصراع المستمر وأحرقها لهيبه، وقد أعياها حتى كاد يقتلها لكنه أنضجها، فخرجت منه أشد عودًا وأقوى صلابَة، بل امتلأت نفسها يقينًا، ففي " ذلك الجو النفسي المشحون بهواجس القلق والخوف المثقل بعقدة

(١) على الجسر، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص٦٨.

الإحساس بالذنب تابعت خطواتي إلى الجامعة، وأنا أحاول أن أستجلي كنه تلك القوة الخفية التي تسيرني وتوجهني فلا أجد لها تفسيرًا إلا أنها إرادة الله الغالبة ومشيئته النافذة [١]".

ولم يكن موقف أبيها من استكمال تعليمها التجربة الوحيدة القاسية في حياتها، بل كلما تقدمت خطوة في مسيرتها احتدم الصراع بينها وبين نفسها، أو بينها وبين البيئات المحيطة بها، ومن تلك الصراعات الخارجية صراعها مع النظم التعليمية المعمول بها آنذاك، وتصف ذلك بقولها: " وهكذا مشيت على الدرب الوعر، فكلما قطعت شوطًا منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستي كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لي، وخفية عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية التي ما وضعت إلا لتحول بين أمثالي من أبناء الطبقة الشعبية، وبين اجتياز الطريق الموصل إلى الجامعة، حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة إلى باب الجامعة أحمل شهادة البكالوريا[٢]".

وهكذا عانت في آنٍ واحدٍ صراعًا داخليًّا من غضبة أبيها، وما يترتب عليها من آثار نفسية وروحية مرتبطة بتدينها، وصراعًا خارجيًّا من التقاليد والأعراف التعليمية الطبقية التي تفرق بين الأغنياء والفقراء في القدر المتاح للتعليم وفق المقدرة المالية.

غير أن صراعاتها الخارجية مع معطيات الحياة تجددت وتطورت وفق مراحل حياتها، ففي الجامعة عاشت أكثر من صراع مع لوائحها المانعة لانتسابها، "فهناك ألفيت الباب موصدًا في وجهي بقضبان من فولاذ...كنت على يقين من استحالة دخولي الجامعة طالبة منتظمة كيلا أبوء بلعنة من غضب والدي الذي ما

(١) على الجسر، ص٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

شككت في أنه بحيث يبرأ إلى الله مني لو فعلتها، وهذه هي اللوائح الجامعية لا تعترف بنظام الانتساب، وهؤلاء هم حراس اللوائح يبتسمون ضاحكين من قولي، ويتندرون بسذاجتي، التي ابتدعت فكرة التقدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم). ولمدى عام كامل بقيت واقفة تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم.

لم يكن قد بقى لي إلا أن أنكص على عقبي وأكر راجعة من حيث أتيت، لكني لم أفعل، فهل كان إصراري على الوقوف هروبًا أحمق من مواجهة صدمة الخيبة بعد كل الذي كابدت؟ أو كان استجماعًا لقواى تأهبًا للجولة الجديدة في المعركة بعد أن أجهدتني الجولات السابقة؟[١]".

وتستطيع أسئلتها أن تكشف عن مدى احتدام الصراع بينها وبين البيئة التعليمية في محيط الجامعة في لوائحها التي تقف حجر عثرة في طريق طموحها.

هذا وقد تعددت صراعاتها وتلونت، فكما صارعت المثبطات، فقد صارعت أيضًا المغريات التي حاولت أن تثنيها عن بغيتها، تصف ذلك بقولها:"ومن عجبٍ أني عصيت على كل تلك الجواذب والمغريات [٢] ، وبقيت واقفةً حيث انتهى بي الشوط عند باب الجامعة الموصد لا أبغي عنه حولا، وكأني مشدودة إليه بأمراسٍ لا تنحل، وقيود لا تلين.

وعبثًا حاولت الرجوع إلى الطريق الأول، التماسا لرضا والدي، وهو أعز ما أدخره لدنياي والآخرة، وعبثًا حاولت التشاغل بالتطلع إلى الأفق الجديد الذى يعد بالشهرة والمجد الأدبى، وهاجس خفي يلقي فى روعي أنني فيما سلكت من طريق إلى الجامعة، وفى إصرارى على الوقوف عند بابها المغلق إنما أنفذ مشيئة عليا لا سلطان عليها لأحد من البشر... وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر فى دوامة القلق والحيرة، فيحميني من السكون إلى راحة اليأس، كما كان

(١) على الجسر، ص٦١.

(٢) تقصد بالمغريات : رغبة أبيها في زواجها من أحد أبناء زميله، وبداية ذياع شهرتها في دنيا الصحافة، وترقيها في وظيفتها إلى سكرتيرة كلية البنات.ينظر: على الجسر، ص٦٢ .

يردنى إلى شيء من سكينة النفس وراحة الضمير كلما ساورني الخوف من عاقبة عصياني لوالدي التقي الصالح، واتجاهي إلى طريق غير الذي رضيه لي[١]".

ففي هذه السطور تضع بنت الشاطئ بين أيدينا الوسيلة التي قهرت بها العقبات، وذلك من خلال اليقين بأن الله سبحانه وتعالى معها فى مسعاها، وأنها مدفوعة إلى هذا الطريق بقوة المشيئة الإلهية، وكان هذا اليقين منقذها من التيه والحيرة، فتقول:" وما كنت لولا مشيئته تعالى لأستطيع أن أجتاز وحدي تلك المفاوز الضيقة والسدود الصعبة والمنحيات الخطرة على طريق تائه المعالم ملتوي المسالك خابي المنارات، كلا ، ولا كان في طاقتي أن أقتحم التيه الموحش في خضم الدنيا بلا زاد للرحلة غير الشوك والعلقم، وبلا دليل غير المخاوف والهواجس والظنون[٢]". وتقول في موضع آخر: "أحاول أن أستجلي كنه تلك القوة الخفية التي تسيرني وتوجهني فلا أجد لها تفسيرًا إلا أنها إرادة الله الغالبة ومشيئته النافذة [٣]".

وهكذا تمضي بنت الشاطئ يحدوها يقين في مطلق القدرة يحميها من صراع النفس، ويمنحها القوة والعون، فيما لاقت من صراعات سواء أكانت داخلية أم خارجية، ومن جملة صراعاتها هذا الصراع الذي قام في نفسها بينها وبين الجامعة التي ظنت أنها ستغير طريقتها في التفكير وتسطو على منهجها في تلقي العلوم، فقد تلقت بنت الشاطئ تعليمها الديني على نهجٍ أزهري متصوف مرتبط بالتراث يمجده وينهل منه، جعلها تعتد بما تعلمته في بيئتها الأولى التي أهلتها لاستيعاب العلوم العربية والإسلامية، وجعلها تعتز بشخصيتها العربية وحضارتها الإسلامية وتراثها العظيم، لكنها ظنت أنه يمكن للجامعة بعلومها الحديثة ومناهجها المستوردة أن تهز عقيدتها الراسخة فيما تلقته ودرسته فى صباها فى بيئة علمية

(١) على الجسر، ص٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣، ٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٦٨.

محافظة، تقول في ذلك:" فلما وصلت إلى الجامعة تطلعت إلى جديد علمها، وفي حسابي أنها سوف تحاول أن تشدني بعيدًا عن منطقة الجاذبية للقديم الذي جئت به، وتوقعت أن أواجه عداءها السافر لمنهجنا الإشراقي، وأن تقدم لي من محدث منهجها في المعرفة ما تحاول به أن تنسخ المنهج الذي زودتني به بيئتي وراضتني عليه[1]"، فصراعها المتوقع لم يقع، ولكن كانت له ظلال على نفسها، فقد كانت متأهبةً لتلك المعركة غير أن حدسها خانها وهمتها المشحوذة لمجابهة الجامعة لم تلق عدوًا حقيقيًا في ساحة المعركة، وقد أثَّر ذلك في نفسها وكان له مردود سلبي على تفكيرها " لكن عامًا مضى دون أن تقدم لي الجامعة ذلك البديل المتوقع، وكان حصاد ذلك العام الأول: عزلة نفسية وفكرية .... وتضاعف شعوري بالغربة الفكرية وأنا أتنقل بين قاعات الدرس على مدى العام أحاول عبثًا أن أكتشف ما لدى الجامعة، مما عسى أن ينسخ قديمي الأصيل، أو يقدم لي بديلا مقنعًا من المنطق الإشراقي الصوفي الذي لم يخذلني فيما مضى، والذي كنت أخشاه من ضغطة الصراع بين عطاء بيئتي وجديد الجامعة لم يلبث أن انجلى عن معركة وهمية في منطقة السراب[2]".

لكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً، ولم تبق كاتبتنا مع الجامعة كمن يحارب طواحين الهواء، فقد تجدد الصراع وكان واقعًا ملموسًا، فبعد تتلمذها على الأستاذ الخولي في سنوات الدراسة الجامعية وإعجابها بعلمه ومنهجه، وبعد أن بدأت علاقتها الشعورية تتحسن بالجامعة وجدت صراعًا جديدًا في طريقها العلمي، تحكي ذلك فتقول:" وكان من الغريب حقًّا أنني حين فتحت قلبي وعقلي للجامعة عن يقين واثق بأن لديها ما تقدمه إليَّ من جوهر العلم ومنهج المعرفة واجهتني أزمة من عجز البيئة الجامعية عن فهم معنى التلمذة العلمية؛ بحيث اضطرتني

(١) على الجسر، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٧.

إلى أن أخوض معها معركة عنيفة لكي أفرض عليها تلمذتي للأستاذ الخولي دون أن تكون مستعدة لقبولها.

كانت البيئة الجامعية تنظر إلى هذه القضية من حيث هي علاقة شخصية أو ظاهرة عارضة غير مألوفة، على حين كنت أنظر إليها من حيث هي قضية مبادئ خُلقية وقيم علمية وكرامة عقلية، فكان صراعًا طويلًا مجهدًا، احتسبت كل أذى فيه امتحانًا لأهليتي لما تعلقت به وطمحت إليه، وجهادًا في سبيل ما آمنت أنه حق وواجب[١]".

وهكذا تمضي بنت الشاطئ في رحلتها – ذات المصاعب والصراعات – بإصرار وعزم، وقد أهَّلت نفسها لذلك بعد لقائها بالأستاذ الخولي، فقد تيقنت أن التلمذة على يديه ليست بالأمر الهين، وأنها في حد ذاتها صراع، فتقول:" ما لبثت أن أدركت أن تلمذتي للأستاذ الخولي جعلت ما فات من مصاعب الطريق أهون من أن تقاس بما أستقبله منها[٢]". فلم يكن صراعها في تلك المرحلة من رحلتها العلمية بعد الجامعية محصورًا في رفض الجامعة تلمذتها للشيخ الخولي فقط، بل كانت التلمذة على الأستاذ في حد ذاتها صراعًا جديدًا في حياتها، وكان الصراع مع الأستاذ قديم من قبل الالتقاء به، تصف ذلك فتقول: " ولم يكن أمامي قبل تصفية حسابي مع الجامعة إلا أن أكشف ما عند الأستاذ أمين الخولي من علم يتحداني طلاب قسم اللغة العربية أن أستغني عن كلمة واحدة منه، وأن أفرغ من هذه الشخصية الأسطورية التي أخذتهم أخذ السحر، وتسلطت عليهم بجبروتها الآسر.... وفي انتظار الموعد المرتقب عكفت طوال أشهر الصيف على مراجعة ما في بيتنا من علوم القرآن والبلاغة استعدادًا للقائه[٣]".

(١) على الجسر، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص٧٩.

وهكذا احتدمت المعركة وطال زمانها وأفضت إلى استسلام كاتبتنا أمام سطوة شخصية الأستاذ الخولي وصرامته وثقافته، تعبر عن صراعها مع المنهج بعد أن أنهت صراعها مع الشخص، فتقول: "وانتهت المرحلة الجامعية الأولى، ولم يبق لي من زهو الطموح إلا إدراكي لحاجتي إلى أن أتعلم، وتطلعي إلى أن أظل ما عشت تلميذة لهذا الأستاذ الذي علمني كيف أقرأ؟ ولم يبق لي ما أعتد به في مجال التنافس العلمي مع زملائي الطلاب إلا أن أباهي بما أعلم من قصوري عن بلوغ مدى الأستاذ الخولي[1]".

وكأن لسان حالها أن النجاة من منازل الصراع – أحيانا–لا تكون إلا بالاستسلام لها، وبإدراكها قصور محصلتها عن بلوغ شأو الأستاذ، وحاجتها إلى التتلمذ على يديه وضعها أمام صراعٍ جديدٍ أكثر وعورة مما مر وأشد حدة وجهدًا مما سبق"، وما كان أشق الطريق بعد ذلك، لقد ظننت حينًا أنني ما أكاد أصل إلى مرحلة الدراسة العليا حتى يهون الأمر عليّ؛ إذ يصير لي حق اختيار المجال الذي أتخصص فيه وأفرغ له، غير أني ما لبثت أن أدركت أن تلمذتي للأستاذ الخولي جعلت ما فات من مصاعب الطريق أهون من أن تقاس بما أستقبله منها، كنت أشعر بالأستاذ الخولي معي في كل ما أكتب وأقرأ، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة حتى ألمح سرها[2]".

وهكذا وقعت أسيرة لمنهج الأستاذ تصارع نفسها أمام هذا المنهج المعرفي الضابط للفكر والمنظم للمعرفة تعرض عليه ما تكتب، بل تحذف وتعيد، وتعاود مرة بعد مرة حتى استقامت على الطريق، وكان لها ما أرادت، وهذا – من وجهة نظري – من ثمار الصراع سواء أكان داخليًّا أم خارجيًا؛ يصقل النفس ويجدد

(١) على الجسر، ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٦.

الفكر ويقوي الهمة ويمحو اليأس ويزيل الاستسلام ويرهف الحس وينمي الشعور، فالأديب الحق أكثر من الآخرين حساسية وأكثر قابلية للانفعال والتوتر، لكنه قادر على ضبط انفعاله والوعي به والسيطرة عليه " فهو لا يستسلم لردود الفعل المباشرة لانفعاله، ولكنه يتأمل هذا الانفعال ويقيس موقفه بموقف الآخرين وتجاربهم، سواء أكانت هذه التجارب مطروحة عليه، من محيطه الاجتماعي، أو من خلال ثقافته التي تطرح عليه تجارب الآخرين وخبرتهم، وعليه يتحول انفعال الأديب إلى حس عميق، وكلما عمق حس الأديب كلما أصبح أكثر تحسسًا لواقعه وللقوى التي تحرك هذا الواقع(١)".

وقد كانت بنت الشاطئ ومن خلال وعيها الذي أملته عليها بيئتها الأولى شديدة الانفعال والحساسية من حياتها الجديدة سواء في المدينة عمومًا أو في الجامعة على وجه الخصوص، وهذا ما رسم لها خطًّا لم تحد عنه في صراعها للمحافظة على قيمها السلوكية والعلمية، فلقد كان حصاد العام الأول لها بالجامعة " عزلة نفسية وفكرية....وما أدري، هل كانت الجامعة مسئولة وحدها عن تلك العزلة؟ أو أنني التي جئتها محصنة من بيئتي الأولى بمناعة تجعلني أعصى على هذه البيئة الجديدة وأقاوم الاستجابة لها؟ ....وشحذت خفيَّ تأهبي لمقاومة كل سحر من بضاعة العاصمة التي نزحت إليها من الأقاليم، وأقمت حواجز عازلة بينها وبين ذاتي كي أصونها من المسخ والتشويه ولا أفقدها في ضجيج الزحام(٢)".

وفي هذا البيان الكاشف تجلي بنت الشاطئ علاقتها بالمدينة كبيئة فُرِضت عليها مغايرة لبيئتها الأولى في دمياط في تقاليدها وأعرافها، وظل هذا الشعور العدائي بينها وبين المدينة يتمادى، والصراع يحتدم كلما تقدمت بها الأيام،

(١) حول الأديب والواقع، د.عبد المحسن طه بدر،ص ٧، بتصرف.

(٢) على الجسر، ص٧٦. باختصار

وخاصة لما كانت تقارن بين سلوك أهلها في ريف المنوفية أو دمياط، وبين سلوك أهل المدينة، وكلما عقدت المقارنة كان ميلها إلى جانب القرية على حساب المدينة، تحكي عن إخفاء أهل قريتها خبر التحاقها بالجامعة عن أبيها ومرود ذلك عليها:" فلما اكتشفت أن القرية تقف إلى جانبي بعد أن عرفت سري زادني هذا الموقف ارتباطًا بالريف الطيب وعزلة نفسية عن المدينة وأهلها، وقيدني بدين باهظ أن أتابع السير والجهاد حتى أكشف عن زيف المدينة وخوائها وأمزق الأقنعة عن وجهها القبيح وروحها الهامدة وحسها الأصم وضميرها الميت، مطمئنة إلى أنني محصنة من فتنة المدينة وغوايتها بمناعة زودتني بها الأرض الطيبة، وكانت تجربتي مع العاصمة تعطيني هذا الاطمئنان، لقد جربت معي كل حيلها وأفانينها، فعصيت على غوايتها، ولم أشعر في أي لحظة بأنني أنتمي إليها، كنت أقيم بها بحكم عملي في كلية البنات الأرستقراطية في قصر أبي أصبع الفخم أتناول طعامي في أطباق الليموج على موائد أنيقة تتلألأ ببريق الكريستوفل والكرستال، وأحن مع ذلك إلى عيشتنا البسيطة في بيتنا العتيق على شط النيل بدمياط، ودارنا في الريف المتواضعة في أعماق المنوفية.....لم تستطع المدينة أن تغويني بسحرها الخلاب وإنما أنا فيها غريبة نازحة، أراها قد أترعت كأسها بما امتصت من عرق الكادحين من قومي، وأتخمت معدتها بما نهشت من ثمار كدهم، وازدهرت متلألئة بما سلبت من نور حياتهم، واغتصبت خيرات أرضهم الطيبة؛ لتتخذ منها زينةً ولهوا [1]".

لقد كانت الحاجة إلى المدينة قائمة، والرغبة فيها نائمة، والرهبة منها جاثمة، فهل انتصرت الرغبة على الرهبة أو العكس؟

وللإجابة عن ذلك لا بد من إدراك أن هناك دائمًا علاقة جدليّة بين الإنسان المفكِّر والمدينة، يطبعها شعور هو مزيج من الرغبة والنفور، والحبّ والكره،

(١) على الجسر، ص٨٤، ٨٥.باختصار

والوصال والهجر، وحينما يغلب الشعور بكره المدينة على الإنسان المفكِّر، يحلم هذا الإنسان المبدع ببيئة أخرى تستجيب إلى تصوراته وطموحاته، وتكون أشبه ببيئته الأولى، وهذا عين الصراع الذي عاشته كاتبتنا مع المدينة، وهي التي وهبت قلمها منذ الصبا للدفاع عن الكادحين في الحقول والشطوط، ورأت أن المدينة تبني سعادتها على شقوة البيئات الأخرى، وقد سبب لها ذلك الصراع عزلةً وانفصالًا عن المدينة وما فيها، وبالعزلة والتأمل استطاعت أن توفر لنفسها فرصة الإفادة من ممارسة الفكر والتحصيل ونشاطهما باستمرار، فما بدا على هيئة صراع خارجي مع المدينة ومظاهرها البراقة انتهى إلى صراع داخلي أو طاقة داخلية كان مصدر إلهام خاتمته انتصار أدبي وعطاء فكري، بل إلى ازدياد فهمها لذاتها.

ولا يغيب عنا أن صراعها مع المدينة لم يكن صراعًا اجتماعيًّا نابعًا من إحساسها بالقهر والظلم لفئات المتعبين في الريف، بل كان صراعًا ناجمًا عن إحساسها بالشر الكامن في حياة المدينة؛ مما ضاعف شعورها بالغربة، ومن ثَمَّ احتدم الصراع بينهما، وتأججت نار المعركة خاصة وأنها عاشت مأساة إهدار القيم الجامعية على يد النخبة السياسية المثقفة والمتمثلة في حزب الوفد آنذاك، فانتقلت المعركة من صدامٍ أو صراعٍ شخصي إلى ترجمان مجتمعي يحمي قيم المجتمع ويذود عن حرماته، ومن أغرقت قلمها في مشاكل أهل الريف حري بها أن تدخل في صراع مع الطبقية التعليمية، والتدخل الحزبي في الحياة العلمية وإفساد ضوابطها: "وتصورت عندئذٍ أن الطريق أمامي بدأ ينكشف لأخوض معركتي مع المدينة بعد أن تمادى بها الشر فأهدرت حرمة الدرجات العلمية التي كانت كل ما بقي منها...فقد غضب حزب الوفد لرسوب كثرة من أنصاره ودعاته وهم ما شغلوا عن الدرس والتحصيل إلا بالعمل الحزبي المجيد، وإذ رأى الحزب استحالة تزييف النتائج الرسمية بعد إعلانها عمد إلى البرلمان وله فيه الأغلبية، فاستصدر قانونًا شرعيًّا يهبط بالحد الأدنى لنسبة درجات النجاح في امتحان

الجامعة من ستين بالمائة إلى خمسين بالمائة على أن يسري هذا القانون بأثر رجعي... ومع خيبة أملي في الجامعة وعزلتي النفسية والفكرية عنها بعد عامي الأول بها غضبت لهذا العدوان الصارخ على حرمة الامتحان الجامعي، وأنكرت شرعية الحق الذي اغتصبه البرلمان، فقرر نجاح طلاب حكمت الجامعة برسوبهم، وفكرت في أن أنسحب نهائيًّا من ذاك السباق بعد أن عبثت الحزبية بقيمه ومقاييسه، وسيطرت على بالي فكرة الانسحاب.....لكن كيف أنسحب قبل أن تتم التجربة؟..... وأجهدتني الحيرة فانقطعت عن مجلس أبي في الأمسيات حيث كنت أقرأ عليه الكتب أمهات في التفسير[1]" ، لم تسلِّط كاتبتنا الضوءَ على مساوئ المدينة المتمثِّلة أساسًا في هوائها الملوَّث، وضوضائها المضرّة، وازدحامها بوسائل النقل، وإفرازها تشوّهات حضاريّة نتيجةَ الثورة الصناعيّة التي أرادت ربط الإنسان بالآلة في المصنع، وحاولت نزع أحاسيسه ومشاعره؛ ليكون شبيهًا بالآلة في أدائها ودقّتها وسرعتها، بل سلطت ذرابة يراعها لتصوير طغيان الماديّة على المدينة وانحسار العلاقات الإنسانيّة فيها، ومن ثَّم اضمحلّت فيها القيم والمُثُل الإنسانيّة وجفت فيها ينابيع الرحمة والعطف، فأصبحت المدينة تتصف بالقسوة والجفاف.

ولعل سبب ذلك الصراع حنين كاتبتنا لموطنها الأول في الطبيعة ذات الهواء النقي والخضرة الشاسعة والمناظر الخلابة، التي كان تتجوّل فيها بحُريةٍ وطلاقة، وقد حرمتها المدينة من حريتها الحقيقية، ومنحتها محلها حريةً زائفة، أخذتها المدينة من رحاب الطبيعة الواسعة الرائعة في شاطيء دمياط أو ريف المنوفية؛ لتجعلها أسيرة أسوارها العالية وجدرانها السميكة وشققها الضيّقة، كما أنها أتت المدينة مرغمة غير راغبة.

(١) المرجع السابق، ص٨٥، ٨٦ باختصار .

على أي حال لقد كان صراعًا طويلًا ومعقدًا وممتدًا ومليئًا بالعثرات، وهذا الصراع منشأه الأول – من وجهة نظري– عمق الإحساس عند كاتبتنا ورهافة الشعور بواقعها، وسعيها الدائب إلى تصور حياة أكثر أمانًا وأشمل عدلًا وإنصافا.

غير أن صراع كاتبتنا لم يتوقف عند ما ذكر، بل كانت هناك صراعات أخرى أشد حدة وأكثر عمقًا وضراوة، لأنها ارتبطت بموروثها العلمي الذي نشأت عليه وارتبطت به منذ نعومة أظفارها، ومن ثمَّ كانت أي محاولة لإقصائها عنه بمثابة زلزال يهدم صومعتها المترهبة فيها منذ أمد، ففي حديث الشيخ دسوقي جوهري عن الأستاذ الخولي وآفاقه الرحبة ومنهجه في تجديد الفكر وتحرير العقل من أغلال الجمود والتقليد ما جعلها تتوجس خيفة على ما حصَّلت من علوم وما اكتنزت من معارف هي سر تميزها بين أقرانها طيلة مسيرتها التعليمية[١] ، وقد كانت مقتنعة بقيمة ما تملك وما تعرف من علوم العربية والإسلام، بل تتحدى به أقرانها والجامعة، فتقول: "وتضاعف شعوري بالغربة الفكرية وأنا أتنقل بين قاعات الدرس على مدى العام أحاول عبثًا أن أكتشف ما لدى الجامعة، مما عسى أن ينسخ قديمي الأصيل، أو يقدم لي بديلا مقنعًا من المنطق الإشراقي الصوفي الذي لم يخذلني فيما مضى[٢]".

إلا أن حديث الشيخ عن الأستاذ الخولي كان بمثابة صدمة المطارق المباغتة، أو رجة الماء في الخلجان بين المد والجزر:" وقد أدرك ببصيرته الذكية ما أعاني من صدمة مباغتة؛ إذ ينطلق بي حديثه وراء الدائرة المغلقة التي كان

(١) قضية الصراع بين القديم والجديد ، وبين الأصالة والحداثة قضية قديمة حديثة تتجدد مع كل جيل ينقسم أهله بين متمسكين بالتراث وثوابته، وبين متطلعين إلى آفاق جديدة من التطوير والتحديث في ظل القديم أو بالثورة عليه ما يثير صراعًا. ينظر: الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي، د.محمد حسين الأعرجي،ص٨، ط/ عصمي للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) على الجسر، ص٧٧.

يعلم أني أعيش فيها، وأتصور أن العالم كله ينطوي داخل نطاقها، وعدت إلى دارنا ساهمة واجمة ألتمس خلوة بالمكتبة ريثما أجمع شتات نفسي المبعثرة.

وأمام خزانة كتبنا جلست أحدق في الكنز الغالي الذي أوشك أن أراه مستباحًا لموازين جديدة محدثة.

وأحاول أن أهرب من حيرتي بالمطالعة في كتب العلماء الذين ألفت صحبتهم، فيختلط كلامهم في مسمعي بصوت الشيخ دسوقي جوهري وهو يحدثني عن حق هذا الجيل في أن يبدأ من حيث انتهى سلفه، وحق العصر في أن يضيف جديده إلى تراث العصور الخالية.

ولأول مرة منذ صحبت أولئك العلماء من أئمة السلف الصالح بدأت أتساءل في أسى: هل يأتي يوم أتخلى فيه عنهم، وقد كانوا مني ملء العقل والروح؟ ولأول مرة كذلك بدأت أرتاب فيما اطمأننت إليه من أنني على وشك تصفية حسابي مع الجامعة.... وتكاثفت الظلال على الأفق مختلطة بالأضواء التي سطعت بغتةً من حديث الشيخ الجليل، فكشفت لي مناطق مجهولة وراء حدود دنياي المقفلة بحواجز ظننتها آخر حدود العالم.

وتشابهت السبل عليَّ في هذا المفترق من الطرق، فلم أعد أدري أي هذه الحواجز يبقى راسخًا في موضعه، وأيها يريد أن ينقض! فليستجب الله لدعاء أبي وليأخذ بيدي على الطريق[1]".

وهكذا تشبثت بنت الشاطئ في متاهة الصراع بيقينها الإيماني ومخزونها الروحي؛ لتخرج من غمرة التيه أبصر بالمنهج المناسب الذي لا ينقض أصيلها، ولا يسفِّه تليدها، ويُبْقي اعتدادها بثقافتها العربية الإسلامية، ويمدها بمداد التطوير الذي يعينها على مواصلة طريق العلم، والتجديد – بمنطق العصر – للإفادة من المناهج الحديثة التى تعلمتها على يد أستاذها الخولى.

---

(١) على الجسر، ص٨٩.

وقد كان لهذه التلمذة وللصراع –الذي قام في نفسها واحتدم – بين التراث الذي طالعته، والمناهج الحديثة في التفكير والنقد ما أحكم خطاها على طريق البحث وأثرى عطاءها، وأعانها على الكتابة والتأليف في علوم القرآن وبيانه، وجعل لمؤلفاتها ذلك الثراء والزخم الذي تعرف به :"كنت أشعر بالأستاذ الخولي في كل ما أقرأ وما أكتب، فأخضع، بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه، وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة حتى ألمح سرها، ولم يعد يعنيني إتمام بحوثي للدرجات الجامعية العالية، بل الذي كان كان كثيرًا ما يحدث أن أقطع فيها مرحلة أحسبها خطوة في الطريق، ثم أعرضها على منهج أستاذي فأتخلى عنها بعد الذي أنفقته فيها من جهد، وأعود فأبدأ من جديد وكأن ليس للزمن والجهد أي حساب في سبيل ضبط الفكر[١]".

لم يكن ما مر نهاية صراعها، بل كان صراعها مع الحياة متجددًا، وكان الجديد هو الأشد الذي أناخ ركابه في نهاية عمرها بفراق رفيق دربها، فاجتمع عليها صراع الألم بالفراق والأمل باللقاء، تصف ذلك في مفتتح سيرتها، فتقول: "على الجسر، مابين الحياة والموت أقف حائرة ضائعة فى أثر الذى رحل: أُطِل من ناحية، فأجده ملء الحياة، وألمح طيفه الماثل فى كل من حولى، وما حولى من معالم وجودنا المشترك، وأتتبع خطاه على دربنا الواحد دفاقة الحيوية سخية العطاء.. وأُميِّز أنفاسه الطيبة الزكية فى كل ذرة من هواء أتنفسه، وأصغى إلى نجواه فى الصمت وفى الضجيج، فى سكون الخلوة وفى صخب الزحام، وأطوف بأرجاء عالمنا الرحب الذى ضمنا معًا، فلا أتصور أنه الراحل الذى لايثوب! وعلى الجسر ألتفت إلى الناحية الأخرى حيث المصير المحتوم لكل حى، لاعاصم منه ولامفر، فأدرك بملء وعيى أنه عبره قبلى إلى نهاية الشوط وغاية المطاف، وأسترجع بيقظة مروعة ومرهفة خطوته الأخيرة على المعبر..... أستعيد هذا كله،

(١) على الجسر، ص١٠٦.

وأستحضره وأسترجعه بيقظة واعية، فأترنح على الجسر ضائعة الحيلة، مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى ... وتتماحى الحدود والفواصل بين الحاضر المفجع، والماضي السعيد الحافل، والغد المحجب في ضمير الغيب المطوي في غيابة المجهول، وتتداخل الأبعاد والآماد؛ حيث أقف على الجسر ما بين الحياة والموت.. وإلى أن يحين الأجل سأظل معلقةً بين الحياة والموت لا أدري إلى أيهما أنتمي، وعلى أيهما أحسب.... إلى أن يحين الأجل سأبقى محكومًا عليَّ بهذه الوقفة الحائرة على المعبر ضائعة بين حياة وموت، أنتظر دوري في اجتياز الشوط الباقي[1]. وما بدأت به سيرتها ختمت به؛ لأنه كان المشهد الأكبر والمسيطر على فكرها، فتقول:" هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة لمسعاي إليه ولقائي به؛ لتؤنس وحشة الفراق إلى أن يحين الأجل، فألحق به ويلتئم الشمل مرة أخرى في عالم الروح.... كل ما مضى انتقل إلى منطقة الأحلام، فلا سبيل إلى استرجاعه إلا في غفوة مختلسة لا تلبث أن تُبَدَّدَ بيقظة مروعة تسلمني إلى قبضة الواقع؛ حيث المشهد الفاجع من قصتنا التي كانت أسطورة الزمان، لقد مضى وبقيت...على الجسر، مابين الحياة والموت في متاهة الحيرة والضياع لا أكف عن رصد حركاتي وإحصاء أنفاسي، مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا مرددة مع كل نفس:كيف مضى وبقيت؟![2]".

وعلى ذلك فقد تعدد صراعاتها الداخلية والخارجية النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية، ولعلها أفرغت كل ما حاك في نفسها تجاه تلك الصراعات التي رسمت اتجاهها وأحكمت مسيرتها وصبغت عطاءها وأنضجت شخصيتها وطورتها، وأقامت بينها وبين القارئ وشائج وروابط، بما منحته للقارئ من – خلال عرض صراعاتها– من قوة وثقة في النفس ومواصلة الحياة مهما تكاثرت العقبات

(١) على الجسر، ص، ٨،٩.
(٢) المرجع السابق، ص، ١١٥، ١١٧.

وتعددت العثرات وتنوعت المغريات، وقد تحقق لها ذلك من خلال كتابتها لذاتها بصدق وأمانة.

المطلب الرابع :الصدق والصراحة

لما كانت كتابة الذات ترجمة لقصة إنسان يحكيها بنفسه، وأنها ليست بالحديث الساذج عن النفس، بل تعبير عن نفس عركتها الأيام، فتحكي تجربتها بين أتراحٍ وأفراح، وتنقل وقائع حياتها للأجيال المتعاقبة بلذاتها وأوجاعها، وإذا كان لكاتب الذات أن ينتقي من سيرته ما يراه مناسبًا، ويغض الطرف عما يبعد عمله عن غايته التي من أجلها كتب، فإن عليه ألا يطلق العنان لخياله يسبح في فضاءات الخلق والابتكار، بل عليه أن يلتزم الحقيقة ولا يحيد عنها؛ لأنه كاتب لذاته وليس لرواية أو أسطورة، خاصة وأن بين الكاتب والقارئ ميثاقًا غيرَ مكتوب مفاده أن يكون أمينًا فيما ينقل، وأن يحكي بصراحة ووضوح تفاصيل ما مر به من أحداث، " ومن مضمرات هذا الاتفاق أو التعاقد السيرذاتي أن الكاتب سيحكي للقارئ ما حدث في الواقع دون إدخال أيّ عنصر من عناصر الإيهام والتخيل في العملية السردية، وأن على القارئ أن يصدّق كل ما يرويه له الكاتب [(١)]"، وبما أن السيرة الذاتية لونٌ من الألوان الإبداعية مادته جاهزة وتعطي نفسها بسخاء، فإنها تتسم بتدرج النصوص محلاة بالشفافية المرجعية؛ حيث الحقيقة والدقة في وضع الوقائع في سياقها الزمني، وتحديد الظروف والملابسات التي رافقتها، وتوضيح المناخ الذي وقعت فيه، فتغدو بناءً سرديًّا تسجيليًّا يستخدم فيه الكاتب التتابع المنطقي للحوادث في المكان والزمان، فالترجمة الذاتية " تنقل لنا الحقيقة عن الإنسان، وتمدنا بحياته على نحو أصدق مما تمدنا به السيرة العامة أو الرواية التاريخية،

(١) رقش الذات لا كتابتها، تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، ضمن لغة الذات: السير الذاتية والشهادات، صبري حافظ: مجلة ألف، العدد الثاني والعشرون، ص ٧– ٨، ٢٠٠٢م.

لأن الترجمة الذاتية أقرب الأنواع الأدبية تصويرًا للحقيقة المعبرة عن الإنسان، وأكثرها التزامًا للصدق[١]" .

ولا يخفى أن السيرة الذاتية مغايرة للكتابات التاريخية، ومن ثَمَّ فإنه يجب على صاحبها أن يتحلى بالصدق حفاظًا على مصداقيته مع القارئ، وضمانًا لتعاطف القارئ معه، كما أن سيرته شهادة على عصره، فلا مكان للكذب أو التوهم فيها، وهو ما يتطلب الصدق المرجعي للكاتب لأن سيرته وثيقة تاريخية، بل يمكن العودة للتاريخ لمراجعة مدى صدقه.

وإذا ما عدنا لكاتبتنا ومستوى الصدق في سيرتها، فإنها صورت أحداث حياتها بأسلوب أدبي رفيع حافل بالحركة والحيوية والمواقف النفسية والشعورية التي نقلتها بأمانة وصدق وحرارة، كما صورت أحداث عمرها وأطوار شخصيتها، ولست أبالغ حين أصف سيرة بنت الشاطئ بأنها من أكثر السير الذاتية التي استطاعت أن تكسب تعاطف القارئ معها وصداقته لها وتصديقها في كل ما روت؛ لأن ما كتبت مثلًا حيًّا عن نفسٍ مكافحة مصارعة في حلبة الأيام واللوائح والأعراف، واستطاعت إثارة كوامن نفس المتلقي وحركت وجدانه وتعاطفه بإثارة الحس المأسوي الواقعي الذي عاشته في رحلتها التعليمية، أو مع فاجعتها برحيل زوجها.

ومن ملامح صدقها في سيرتها وميثاقها مع القارئ: التطابق الاسمي بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسة في الكتاب؛ إذ أُعلِن عن اسم المؤلف بوضوح على غلاف الكتاب، كما صرحت باسمها الحقيقي أو المستعار في ثنايا سيرتها، كقولها عن ساعة ولادتها:" وسماني عائشة تفاؤلا باسم أم المؤمنين[٢]"، وقولها: "ولم يطل بي التفكير في اختيار الاسم المستعار، بل كان أول ما خطر على بالي هو أن أنتمي إلى الشاطئ[٣]".

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم ، ص٤١.

(٢) ينظر:على الجسر، ص١٩.

(٣) ينظر:المرجع السابق، ص٦٠.

وكذلك الميثاق المرجعي الذي يظهر عندما تحيل بنت الشاطئ في سردها للأحداث إلى واقع خارج النص يتمثل في إشارة الكاتبة إلى حوادثَ تاريخيةٍ بعينها تُخبر عن واقع تاريخي أو حقيقة تاريخية يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى المصادر الأخرى، ممّا يدل على حرص الكاتبة على إعطاء سيرتها صفة المصداقية، والتزامها بالعقد المبرم بينها وبين القارئ، كحديثها عن تدخل الوفد في الحياة الجامعية، أو استشهاد بعض زملائها وذكر أسمائهم، وموقف الجامعة من ذلك[١] ، والذي منحها ثقة القارئ ويقينه في صدقها، كما أن ذكرها لحقائق تاريخية في سيرتها قد لا يكون القارئ على دراية بها أو إلمام بتفاصيلها – هو في حد ذاته – كسب لذهن القارئ.

وإذا كان حديثها عن عالمها الداخلي الذي صورت فيه صراعها مع الحياة والظروف المحيطة بأسلوبٍ أدبي توشح بجماليات خيالية إلا أنه لم يخرج عن الحقيقة، بل كانت بتفننها الأدبي تحقق غاية أكبر ودرجة أعلى من التأثير في القاريء دون أن تخدعه أو تزيف الحقيقة، وإن كان لكاتب الذات أن يلجأ للخيال كأديب من سماته التخيل، فلا مشاحة في ذلك شريطة أن يكون خيالًا مقيدًا بالحقيقة متوشحًا بالتذكر الرمزي، وأن يصبغ الحقائق بمشاعره، ففي قولها:" في ذلك الجو النفسي المشحون بهواجس القلق والخوف المثقل بعقدة الإحساس بالذنب تابعت خطواتي إلى الجامعة وأنا أحاول أن أستجلي كنه تلك القوة الخفية التي تسيرني وتوجهني فلا أجد لها تفسيرًا إلا أنها إرادة الله الغالبة ومشيئته النافذة [٢]".

فبهذه الكلمات المعبرة عن إشارات كانت تؤمن بها وتعيش عليها في يقين صادق وإيمان ثابت نالت بنت الشاطئ محبة وتعاطف القارئ، لأن ما آمنت به وأحسته كتبته دون تزييف، أو مغالاة، وإذا كان هذا شأن نص السيرة الذاتية،

(١) ينظر:على الجسر، ص٧٨، ٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٨.

وشأن كاتبها، فمن ثَمَّ " تنشأ بيننا وبينه رابطة ما، بأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثًا يَلقى منا آذانًا واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخباياه، وهذا شيء يبعث فينا الرضا، وقد يأثرنا(١)".

وقد كتبت بنت الشاطئ صراعاتها بموضوعية وبدون مبالغة، كما كانت معنية بنقل واقع حياتها ومقومات الشخصية التي عاشتها، وتصور نفسيتها إزاء معطيات حياتها، فعندما تعبر عن إحساسها وموقفها الشعوري من المدينة، وتصدق في ذلك بما نقلته من براهين دامغة على صدق مشاعرها، وإن جاء في أردية من فن العرض الأدبي في صور بيانية خيالية إلا أنها لم تنافِ الحقيقة أوتَنُد عنها، بل قربتها أكثر من وجدان القارئ، وأعطتها روحًا ومنحتها حركة وحيوية، إذ تقول:"لم تستطع المدينة أن تغويني بسحرها الخلاب، وإنما أنا فيها غريبة نازحة، أراها قد أترعت كأسها بما امتصت من عرق الكادحين من قومي، وأتخمت معدتها بما نهشت من ثمار كدهم، وازدهرت متلألئة بما سلبت من نور حياتهم، واغتصبت خيرات أرضهم الطيبة؛ لتتخذ منها زينةً ولهوا (٢)".

وكاتبتنا في ذلك صادقة التصوير، شجاعة التعبير، صادقة الحس في إدراك دوافعها في موقفها الذي عبرت عنه، وإن لوَّن الخيال تصويرها، إلا أنها لم تخلق مادتها من وحيه، بل لم تفقد أصوله الواقعية، فكان الخيال الخصيب " الذي لا يؤذي الحقيقة المطلوبة على أية حال(٣)".

وهنا تبرز قيمة الأداء الفني في السيرة الذاتية، فالإطار الفني "يدخل ليقيم جسرًا من الخيال تَعْبر فوقه الحقيقة، وهوهنا عنصر جوهري، ولكنه في الوقت نفسه محدود بحدود الحقيقة، توازن دقيق بينهما لا يطغى فيه الخيال أبدا على

(١) فن السيرة،د.إحسان عباس، ص٩٤.بتصرف يسير.

(٢) على الجسر، ص٨٤، ٨٥. باختصار .

(٣) السيرة تاريخ وفن، د. ماهر حسن فهمي، ص٢٩١.

الواقع والحقيقة، بل لا يزحزحها عن موقعها غير أنه قد يلونها بألوان الطيف، فيزيدها بريقًا، ولكنه لا يغير معالمها(١)".

وإذا كانت بنت الشاطئ لم تقل في سيرتها كل الحقيقة، فإن كل ما قالته كان حقيقة وإن توشح بالخيال، لكنه الخيال المقيد غير المطلق، سواء في صورها الفنية أو الحوارية، فقد بدت فيه أمانة النقل وواقعية الموقف(٢)، فذكرت أحداثًا وغضت الطرف عن أخرى، وذكرت أشخاصًا ونسيت أو تناست آخرين، فلم تذكر – على سبيل المثال– شيئًا عن إخوتها (مع كثرتهم) ولا عن زملاء العمل، ولا عن رحلاتها العلمية والعملية مع طولها وتعدد وجهتها بين الصحافة والتدريس والجامعات، كما لم تذكر شيئًا عن معاركها الأدبية، أو زواجها من الأستاذ الخولي وموقف الأسرة والمجتمع من ذلك؛ لأن هذه الأمور في غالبها – من وجهة نظري– خارج غايتها من كتابة سيرتها، "فالذاكرة تنسى وتذكر كثيرًا من الأحداث حسب قيمتها الكبيرة والصغيرة، وحسب ما تمنحه من لذة أو ألم(٣)". فهو نسيان أو تناسي لما قد لا يفيد القارئ، ولا يحقق غاية الكاتب، وقد يخل الذكر والترتيب الواقعي بالانسجام الفني للنص.

المبحث الثاني:تشكيل النص وطرائق بنائه.

لكل أديب عالمه الخاص الذي يعكسه بما يكتب في تعبير شخصي يميزه عن غيره من خلال انحراف يطرأ على قواعد تشكيله وترتيبه وتركيبه، فيتميز أسلوبه بخواص فرديته، ويطبع بصبغة صاحبه، حيث تصير له أنماط أسلوبية مساندة يستعين بها لإضفاء القوة والمتانة على صياغته لذاته، ويستطيع توظيفها لتحقيق الغاية التي يرنو إليها.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٢) ينظر :السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٩١.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٧.

وقد كان لبنت الشاطئ أساليبها البليغة، وأنماطها المؤثرة في المتلقي والدائرة بين الإقناع والإمتاع، من خلال قوة الأساليب وتنوعها، وغناها الجمالي بالتقنيات الفنية والمحفزات الإبداعية، والمستوى الفني الرائق الذي وصل إليه النتاج الأدبي، ودرجة تلقيه وقبوله فنيًّا، لا سيما في شكل التعبير وطريقة البناء، ومن أبرزها:

المطلب الأول : الأساليب اللغوية.

لا غرو أن اللغة ترجمان الفكر ووعاؤه، والرابط بين عالم الأذهان وعالم الأبدان، وأنها مظهر من مظاهر القوة والابتكار للمجتمع، فهي تعكس الجانب العملي في الحياة حين تدفع الكلمة لتكون في خدمة العمل، وتصبح أداة للممارسة، وهكذا المبدع حين يعرض آراءه وأفكاره، بل سيرته ومسيرته، وقد تمتعت بنت الشاطئ – في عموم نتاجها– بلغة راقية ومفردات رشيقة جامعة بين الفصاحة والعذوبة، واستطاعت كتابة ذاتها بلغة واضحة فيها مسحة حزن وألم جاذبة للقارئ، واقرأ معي قولها تصف وقفتها على أبواب الجامعة الموصدة :" ومن عجبٍ أني عصيت على كل تلك الجواذب والمغريات، وبقيت واقفةً حيث انتهى بي الشوط عند باب الجامعة الموصد لا أبغي عنه حولا، وكأني مشدودة إليه بأمراسٍ لا تنحل، وقيود لا تلين.

وعبثًا حاولت الرجوع إلى الطريق الأول، التماسا لرضا والدي، وهو أعز ما أدخره لدنياي والآخرة.

وعبثًا حاولت التشاغل بالتطلع إلى الأفق الجديد الذى يعد بالشهرة والمجد الأدبى... وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر فى دوامة القلق والحيرة، فيحميني من السكون إلى راحة اليأس، كما كان يردنى إلى شيئ من

سكينة النفس وراحة الضمير كلما ساورني الخوف من عاقبة عصياني لوالدي التقي الصالح، واتجاهي إلى طريق غير الذي رضيه لي[١]".

لم تكن لغة التعبير عصية عليها، بل كانت طيعة سهلة منقادة، ومن ثَمَّ سَهُلت ألفاظها وحسنت تراكيبها، وبدت فيها الملكات الجمالية والدقة التوظيفية للتعبير عن ذاتها والأحداث التي مرت بها، وهذا يدل على وعي الكاتبة باللغة وتحقيق رغائبها من كتابة سيرتها من خلال اللغة المستخدمة التي ترسم حياتها، وتصورها في العالم المقروء كما كانت في العالم المحسوس، فقد استخدمت الاقتباس إلى جوار التشبيه– الذي حمت به نفسها من الإغراق أو الغلو–(لا أبغي عنه حولا، وكأني مشدودة إليه بأمراسٍ لا تنحل، وقيود لا تلين) لتعطي صورة محبوكة مسبوكة عن واقعها وعن أصداء نفسية داخلية كشفتها وأفصحت عنها من خلال فصاحة لغتها، وائتلاف المعنى مع اللفظ، وتفويفه[٢].

كما أن في التقديم المتكرر بقولها: (وعبثًا حاولت الرجوع إلى الطريق الأول) (وعبثًا حاولت التشاغل بالتطلع إلى الأفق الجديد) لتوحي للقارئ –من خلال تكثيف الجملة وتركيزها– بالاستبعاد وصعوبة حصول الأمر والتشويق والتسليم[٣]،

---

(١) على الجسر، ص٦٢. والمَرَسَةُ: الْحَبْلُ لِتَمَرُّسِ الأَيدي بِهِ، وَالْجَمْعُ مَرَسٌ، وأَمْراسٌ جَمْعُ الجمعِ، وَقَدْ يَكُونُ المَرَسُ لِلْوَاحِدِ. والمَرَسَةُ أَيضاً: حَبْلُ الْكَلْبِ؛ قال:

يُوَدِّعُ بالأَمْراسِ كلَّ عَمَلَّسٍ، ... مِنَ المُطْعِماتِ اللَّحْمِ غَيرِ الشَّواحِنِ

والمَرْسُ: مَصْدَرُ مَرَسَ الحَبْلُ يَمْرُسُ مَرْساً، وَهُوَ أَن يَقَعَ فِي أَحد جَانِبَيِ البَكْرَةِ بَيْنَ الخُطَّافِ وَالْبَكْرَةِ. وأَمرسه: أَعاده إِلى مَجْرَاهُ. يُقَالُ: أَمْرِسْ حَبْلَكَ أَي أَعِدْهُ إِلى مَجْرَاهُ، لسان العرب لابن منظور ٦/٢١٥، مادة(مرس).

(٢) التفويف: أن يأتي المتكلم بجمل متناسقة متتابعة، وحسنه إذا كان خاليًا من الركاكة المؤدية إلى ثقل النطق، ينظر: ، زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، أحمد الحملاوي، ص١٥٧، ط/ المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

(٣) التسليم هو: أن تنفي شيئًا ثم تفرض ثبوته وتبين أنه لا فائدة منه على كل حال، ينظر: زهر الربيع للحملاوي، ص١٥٦.

وفيه أيضا حسن بيان[١]، ومن جماليات التعبير أيضا مراعاة النظير بقولها: (فيحميني من السكون إلى راحة اليأس، كما كان يردنى إلى شيء من سكينة النفس وراحة الضمير) وبه وبالمقابلة بين(طاقة من العزيمة والصبر) ، (فى دوامة القلق والحيرة)، وعتاب النفس بقولها:(كلما ساورني الخوف من عاقبة عصياني لوالدي التقي الصالح، واتجاهي إلى طريق غير الذي رضيه لي)، وهذا في كلامها كثير كقولها عن الأستاذ الخولي: (من كان يعطي الحياة حياة، ويفيض عليها جمالًا من شجاعته وحكمته، وذكائه وفروسيته[٢]) من إيهام التأكيد وهو في أصله تأسيس للمعنى[٣] ، وفي قولها يفيض عليها.... استتباع بتعدد صفات مرثيها، ومن العكس[٤] ما جاء في قولها:" تلك إذن تجربة أخرى نكابدها فيكون منا الحي الميت والميت الحي[٥]"، ومن التفويف والمقابلة قولها:" وأصغى إلى نجواه فى الصمت وفى الضجيج، فى سكون الخلوة وفى صخب الزحام[٦]". ومن سلامة الإبداع والاختراع أنها تأتي بعبارات لمعانٍ لم يسبق إليها التعبير بها، كقولها:(الزائر المرهوب، أسدل قناعه الحزين، ريح العدم[٧])، (يرتد إليها صدى ندائها وضراعتها مجهدًا ممزقًا ضائعًا[٨])، (الأفق الشجي الحزين[٩])، (جُنَّ

(١) حسن البيان هو: الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس، ينظر: زهر الربيع للحملاوي، ص١٨٩.

(٢) على الجسر، ص، ١١٦،١١٧.

(٣) ينظر: زهر الربيع للحملاوي، ص١٩٩.

(٤) العكس أن تقدم جزءًا في الكلام ثم تؤخره، ويسمى القلب والتصدير، ينظر: زهر الربيع للحملاوي، ص١٦١.

(٥) على الجسر، ص١١٦.

(٦) المرجع السابق، ص٧.

(٧) المرجع السابق، ص٧.

(٨) المرجع السابق، ص١٧.

(٩) المرجع السابق، ص١٨.

يأسي[١])،(نورالاستشهاد[٢])، (العواء الذي يجرح صمت الليل[٣])، (كواذب الأماني وسراب الأوهام، شواغل القنوط ومحنة القلق، خيط من الرجاء[٤])، (أذابت تهيبي[٥])، (حبال الصبر[٦])، (خابي المنارات،التيه الموحش[٧])، (تتألق أساريره[٨])، (أترعت كأسها وأتخمت معدتها[٩])، (شط بي الوهم وجنح [١٠])، (شاخ قلمي الغض، واكتهلت عقليتي الصبية[١١])، (أجتر الذكرى، هول اليقظة، مشارف الأفق المسحور، أُلُمُّ شتات ذاتي المبعثرة وأشلاءها الممزقة، لوثة الأسى ومتاهة الضياع، الأفق عبقري السنا والجلال، أتسول غفوة حالمة[١٢])، (زهو طموحي وعناد كبريائي[١٣])، (وهج الضرام المتوهج في أعماقنا يتلمس متنفسا[١٤])، (غفوة مختلسة، يقظة مروعة تسلمني إلى قبضة الواقع، الموت الهامد[١٥])، ففي كل جملة صورة فنية بديعة ولمحة إبداعية فريدة، بما فيها من التشخيص والتأثير، والواقع النفسي، والإيقاع المطرب.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص٣٧.
(٣) المرجع السابق، ص٣٨.
(٤) المرجع السابق، ص٣٩.
(٥) المرجع السابق، ص٥٨.
(٦) المرجع السابق، ص٦٢.
(٧) المرجع السابق، ص٦٣.
(٨) على الجسر، ص٧٩.
(٩) المرجع السابق، ص٨٥.
(١٠) المرجع السابق، ص٩٤.
(١١) المرجع السابق، ص٩٥.
(١٢) المرجع السابق، ص١٠١.
(١٣) المرجع السابق، ص١٠٢.
(١٤) المرجع السابق، ص١١٣.
(١٥) المرجع السابق، ص١١٥.

وهكذا تسير بنت الشاطئ في سيرتها بالقارئ وكأنه في حديقة غناء بالجماليات الأسلوبية الشاعرية ذات الطابع الأدبي بكل ما فيه من الانسجام والتنسيق والتأثير في القارئ من خلال السهولة الأسلوبية الناصعة، والمتانة التعبيرية المشرقة، وعذوبة الألفاظ الدالة المعبرة، إضافة إلى قوة السياق وجمال الصياغة، ونسج الصور البيانية، مع لطافة المعاني وترتيب الأفكار، والبعد عن التكلف مع مراعاة الأحوال والمقامات، وهو سمة غالبة في كلامها، إضافة إلى السرد القصصي الماتع، ومن ذلك قولها تصف مشهد وفاة زوجها :" على الجسر، مابين الحياة والموت أقف حائرةً ضائعةً فى أثر الذى رحل:أُطل من ناحية، فأجده ملء الحياة، وألمح طيفه الماثل فى كل من حولى، وما حولى من معالم وجودنا المشترك، وأتتبع خطاه على دربنا الواحد دفاقة الحيوية سخية العطاء.. وأُميِّز أنفاسه الطيبة الزكية فى كل ذرة من هواء أتنفسه، وأصغى إلى نجواه فى الصمت وفى الضجيج، فى سكون الخلوة وفى صخب الزحام، وأطوف بأرجاء عالمنا الرحب الذى ضمنا معًا، فلا أتصور أنه الراحل الذى لا يثوب! وعلى الجسر ألتفت إلى الناحية الأخرى: حيث المصير المحتوم لكل حى، لاعاصم منه ولا مفر، فأدرك بملء وعيى أنه عبره قبلى إلى نهاية الشوط وغاية المطاف، وأسترجع بيقظة مروعة ومرهفة خطوته الأخيرة على المعبر، إذ يستوعب الوجود كله فى نظرة ثاقبة، ويستجمع قواه ليجتاز المرحلة الباقية، فى بهاء فروسيته وعزة كبريائه وجلال إيمانه مناضلًا حتى النفس الأخير عن الحق والخير، ومحتملًا حتى النفس الأخير أمانة الإنسان. وبملء وعيي كذلك أستعيد المشهد الفاجع للزائر المرهوب.. أَلَمَّ بدارنا مُقنَّعًا مستخفيا لاتراه عين ولايدركه، فلم يتلبث غير لحظة خاطفة.. أنجز فيها مهمته بأسرع من لمح البصر، ثم انطلق بعدها يتابع جولته المرسومة فى لوح القدر لحصاد الآجال.. بعد أن ترك بصمته على ركن دارنا وأسدل قناعه

الحزين على الجسد الراقد:ملاءة رقيقة بيضاء، وإن لم يعرف الأحياء ما يدانيها كثافة وصلابة، وغلظا وثقلا.. [١]".

وفي هذا ما يثبت أن لغتها تمتعت بأثر جمالي ناجم عن كون اللغة قوام العمل ومادته وسمته المائز، فصارت لغة النص الأدبية –إلى جانب قيمة التوصيل والتعبير عن المعنى– ذات قيمة في الصياغة الفنية الجمالية التي تفضي إلى الاستمتاع بها وبصورها وعباراتها وتراكيبها ومفارقاتها.

ومن جماليات استخدام اللغة عند بنت الشاطئ التعبير **بضمير المتكلم** في سيرتها الذي – غالبا – يميّز السرد في السيرة الذاتية، والذي من خلاله يتحقق التطابق بشكل كامل بين الكاتب والسارد والبطل، وبما أن كاتب السيرة لا يكتب لنفسه، بل يقدم أبعاد تجاربه الشخصية للقارئ، فهذا أدعى لأن تكون ذاته مكشوفة غير مستورة، وهذا يطلعنا أكثر على دواخله وأعماقه.

كما أن ضمير المتكلم يساعد على التذكر والاسترجاع والتحليل والاستبطان الذاتي للشخصية المحورية؛ فمن خلاله تسرد الشخصية المحورية الساردة وهي واقعة في زمن حاضر(الذي هو زمن السرد) ما مرّ بها من مواقفَ وأحداثٍ وشخصيات في زمن مضى، مما يؤثر في شكل السيرة الذاتية.

وقد ساعد هذا النمطُ كاتبتَنا على البداية بالحاضر والعودة إلى الماضي، فتسرد المؤلفة الأحداث بضمير المتكلم؛ لتتحدث بشفافية ومباشرة عمّا وقع لها في سنوات سابقة، وتأتي أهمية استخدام ضمير المتكلم في أنه "يحيل على الذات مباشرة، ويجعل الحكاية المسرودة مندمجة في روح المؤلف، كما أنه يقرّب القارئ من العمل السردي ويجعله أكثر التصاقًا به، ويستطيع التوغل في أعماق النفس

(١) على الجسر، ص٦، ٧.

البشرية، فيعرّيها بصدق، ويكشف عن نواياها بحق، ويقدّمها للقارئ كما هي لا كما يجب أن تكون[١]".

كما أنه يميز السيرة عن الرواية، ويجعلها أبعد عن الخيال وأقرب للواقعية وأدعى للصدق، فكاتب السيرة الذاتية حين يستخدم ضمير المتكلم " يقدم لنا تجربة عارية [٢] ".

كما يجعل حضور شخصية الكاتب مركزيًّا وأساسيًّا في السيرة الذاتية، وأن الأحداث والأشخاص والأزمنة والأمكنة تدور في فلك الشخصية، أضف إلى ذلك أن استخدامها لضمير المتكلم قد سمح لها بأن تصور انفعالاتها، وتنقل انطباعاتها تجاه أحداث العالم الخارجي بمباشرة وحميمية.

هذا، ولم تخل سيرة بنت الشاطئ من بعض الجمل العامية، وهي إما جمل جرت على لسان شخصية من شخصيات سيرتها، فنقلتها كما جاءت على لسان صاحبها كقولها على لسان جدها:" هيه، دي آخرة عيشتك في الحضر، ما نابك إلا عوجة ضبتك[٣]"، تقريبًا للقارئ من الحوار، وصدقًا في النقل، وقد يأتي في صورة جمل ارتبطت بمفهوم مسيطر على المجتمع، أو يجري فيه مجرى المثل، فنقلته كما يتحدث به مجتمعها دون محاولة لإخراجها في ثوب فصيح، كقولها:" وهؤلاء هم حراس اللوائح يبتسمون ضاحكين من قولي، ويتندرون بسذاجتي، ابتدعت فكرة التقدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم)[٤]". وقولها عن معتقد

(١) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د.عبد الملك مرتاض، ص ١٨٤- ١٨٥.ط/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة/ العدد مئتان وأربعون، الكويت١٩٩٨.

(٢) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٥٢.

(٣) على الجسر، ص٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص٦١.

مجتمعها الأُسري في القدر:" أو ليست تربيته الدينية لي هي التي رسخت عقيدتي في اليقين بأن (المكتوب على العين لازم تشوفه العين)؟ [١]".

ومنه أيضا حديثها عن نظرتها لمنهجية فكر الأستاذ الخولي قبل اللقاء به في الجامعة: " وكلمة المنهج لاتعدو عندي أن تكون تسمية محدثة لما درجنا علي تسميته بالمذهب والطريقة، ومبلغ علمي (أن لكل شيخٍ طريقة) [٢]".

ففي هذه التعبيرات نقل أمين لمشاهد الحياة الواقعية[٣] بجمل عامية محفوفة بالفصحى من كل جانب، ولعل ذلك دليلٌ على صدق الكاتب في كتابته لسيرته، كما يضفي المصداقية بينه وبين القارئ، غير أن ذلك لم يكن ظاهرة مسيطرة على أسلوبها، لأنها التزمت الفصحى في كل كتابتها وحواراتها داخل سيرتها.

وعليه فقد استطاعت كاتبتنا – من خلال أسلوبها اللغوي– أن تحول حياتها بكل معطياتها النفسية والاجتماعية إلى عمل فني أدبي تناغم فيه النص مع القارئ، ووعى ما يسرد عليه، وصارت لغتها حاضنًا استمد النص منه حضوره وتأثيره وبقاءه، بل صار أداؤها شاهدًا على ثقافتها الواسعة باللغة، فقد كشف أسلوبها عن شخصيتها المالكة لزمام اللغة، والعلاقة بين اللغة وصاحبها قائمة لا سيما عند كتابة ذاته، فمن" أبرز سمات ترجمتنا الذاتية الحديثة وجود علاقة بين الأسلوب اللغوي وبين شخصية صاحبه، إذ إن هناك اتفاقًا بين الأسلوب وبين الشخصية وتطابقًا، يجعلان الأسلوب يدل على ملامح الشخصية الروحية والفكرية للكاتب ويعكسها لنا، لأنه يصبح في وسعنا أن نضع أيدينا على قرائن من خلال الاستعمالات اللغوية التي يتميز بها كاتب الترجمة الذاتية تمثل لنا ملامح شخصيته تمثيلًا صادقًا[٤]"، وقد كانت قوة أسلوبها اللغوي مع سهولة ألفاظه ،

(١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٧٠.

(٣) ينظر :السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٩١.

(٤) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحي إبراهيم عبد الدايم ، ص١٧٠.

وتماسك عباراته وانسجامها ما يدل على خصائص شخصيتها الفكرية والمنهجية، وقد تحدثت عن أسباب تميز أسلوبها بقولها:" كنت أحاضر وأخطب بلسان صقله تجويد القرآن الكريم، وأكتب وأألّف معتمدة إلى أقصى المدى على اتصالي بالبيان العربي في ذروة نقائه وعز أصالته، وفقهي لأسرار النحو واللغة تجعل القلم طوع يدي[1]".

وهكذا اكتسبت لغتها الرونق الجميل، والحُسن البديع بعد أن تثقفت بثقافة القرآن الكريم السامية، وتمكنت من لغة العرب الصافية، فابتعدت لغتها عن الوحشيِّ أو الغريب متأثرةً بلغةِ الوحيِ المبين.

وهذا حاملنا إلى مواصلة الرحلة وشحذ الهمة لمطالعة معلم جديد يكشف معالم وملامح تشكيل النص وطرائق بنائه.

المطلب الثاني: التناص (الاقتباس)

تمتاز اللغة العربية بأنها زاخرة بالأساليب البلاغية القادرة على الارتقاء بمستوى الأداء الفني؛ لتصل المعاني بكل سهولة ويسر لأسماع المتلقين وعقولهم، وليتحقق لهم الإمتاع اللفظي والعقلي في آنٍ واحد ، ومن تلك الأساليب أسلوب الاقتباس[2]، وهو من الظواهر الأسلوبية التي يسهل رصدها، ويظهر توفرها في سيرة بنت الشاطئ.

هذا، وينصهر الاقتباس في كثير من كتب النقد الحديث تحت مصطلح (التناص)، بمعنى دخول النصوص بعضها في بعض، سواء أكان ذلك عمداً وقصداً أم من فيض العقل الباطن، إذ يشبهون النص الأدبي (بالفسيفساء) التي تتكون من عدة أحجار وألوان بشكل منسق جميل يمنحها شخصية متميزة مستقلة

(١) على الجسر، ص٩٤.

(٢) يقصد بالاقتباس عند البلاغيين بأنه " تضمين النثر أو الشعر شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف لا على أنه منه، ويجوز أن يُغَيَّر في الأثر المقتبس قليلاً" ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين أبي عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (الخطيب)، ص٣١٢، ط/ دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى،بيروت٢٠٠٣م ، وزهر الربيع ، ص ١٧٩.

ننسى فيها تفاصيل الأحجار والألوان، والتي يقابلها في الشعر والنثر الألفاظ والصور، وعليه فالتّناص خروج نص قديم من العقل الباطن بإبداع جديد.

وخروجًا من الخلاف الاصطلاحي ووصولًا إلى غايتنا، والمتمثلة في تأثر البنية التركيبية عند كاتبتنا بعامل الإدماج والإدخال (سواء أكان اقتباسًا أم تناصًّا) بحيث تكون منسجمة وموظفة، ودالة – قدر الإمكان – على الفكرة التي يطرحها الأديب، فالغاية المرجوة من هذه العملية تعني إعادة استخدام الكلام الذي مضى، وربط الماضي بالحاضر والأصالة بالمعاصرة والتراث بالحداثة، وكذلك ربط الأدب بغيره من الثقافات والفنون.

كما تكمن قيمة التناص الفنية في أنه يمثل حضورًا للنص الآخر على سبيل الاستمداد والموافقة، وليس على سبيل المناقضة أو المفارقة، حيث " يتحول التراث في كثير من الأحيان إلى رموز وعلامات واستعارات فنية وجمالية؛ لتوصيل الرسالة والخطاب إلى المتلقي، ويستعمل أيضا لتفادي التقريرية والتعيين والمباشرة من أجل تحقيق الإيحاء والانزياح والتضمين[١]"، ويتحقق ذلك من خلال تخزين التراث الثقافي في ذاكرة الأديب، ثم بث ومضات من أثير ذلك التراث في ثنايا نصه تثريه وتعلي قيمته.

هذا، ويبقى الاقتباس ممارسة إبداعية حقيقية وأصيلة ما توافرت فيه شروط التفنن والتجديد والصبغ والسبك.

وقد تنوعت صور الاقتباس عند بنت الشاطئ في سيرتها، **ومن صور الاقتباس القرآني اللفظي (النصي المباشر)**[٢] قولها في مدخل سيرتها:"وما

---

(١) استدعاء الشخصيات الإسلامية في شعر نزار قباني – د. رعد رفعة مولود، ص ٩٤ مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، العدد الخامس والأربعون – حزيران (يونيو) ٢٠١٨ م.

(٢) ويقصد بالاقتباس النصي" الالتزام بلفظ النص القرآني لفظًا وتركيبًا،ووضعها في النص الجديد بعد توطئة لها مناسبة تجعلها تتلاءم مع الموقف الاتصالي الجديد وموضوع النص. ينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص و تحليل الخطاب . د. نعمان بوقرة، ص١٠١،ط/ جدارا للكتاب العالمي، عمان ٢٠٠٩م، القيم الجمالية في الشعر الأندلسي –عصر الخلافة والطوائف، د. آزاد محمد كريم الباجلاني،ص ٢٩٤، ط/ دار غيداء – عَمَّان ٢٠١٣م.

باختياري أن تبطئ خطواتي عليه، ولا بإرادتي تخلفت عمَّن عبر، قصارى ما أعلمه أن{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ[١]}، {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ [٢]}[٣]"، وفي هذا الاقتباس وغيره مما جاء في سيرتها ما يوحي بالمضمون التراثي الذي ملأ ذهن الكاتبة، واستخدمته في تأكيد مصداقيتها في تأخرها عن زوجها في الرحيل، وأن ذلك خارج إرادتها وفق ما تؤمن به، ومنه قولها عن أبيها:" أوليس هو الذي لقنني أن أمر الله نافذ، وكل ماقدر يكون؟{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ[٤]}، { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ[٥] }[٦] "، ومهمة الاقتباس هنا- من القرآن الكريم أو الموروث الشعبي- أنه وسيلة لتبرير الأفكار أو الأحداث التي قامت بها الكاتبة وإضفاء الشرعية عليها.

ومن جليل الاقتباس قولها: " لكنَّ عامًا مضى دون أن تقدم لي الجامعة ذلك البديل المتوقع، وكان حصاد ذلك العام الأول:عزلة نفسية وفكرية عن هذه الجامعة التي تلوح من بعيد {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا[٧]}[٨]".

فهذه الصورة الاقتباسية أعطت للفكرة التي سعت الكاتبة إلى تأكيدها القوة والمعقولية والمصداقية، فليس وصف الجامعة بالسراب مقبولًا إلا ممن لم يجد ضالته المنشودة ويغتنم فرصته المرصودة، وهي صورة من واقع الكاتبة كشفته بهذا الاقتباس المطعِّم والمطهِّم لأسلوبها، وإذا كانت بنت الشاطئ استخدمت

(١) سورة آل عمران -١٨٥.
(٢) سورة لقمان- ٣٤.
(٣) على الجسر، ص٨.
(٤) سورة الأنفال- ١٧.
(٥) سورة التكوير- ٢٩.
(٦) على الجسر، ص٦٣.
(٧) سورة النور- ٣٩.
(٨) على الجسر،ص ٧٦.

الاقتباس في صدر سيرتها (وهي ذات أسلوب دائري) فقد عادت وبه ختمت، فتقول في ختام سيرتها:"أم لعلها الحياة التي أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع من الزمان، تفسيرا آية الله العظمى فينا، خلقنا {من نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}(١) (٢)".

وهكذا جاء التوظيف التراثي – خاصة للنص القرآني الذي تشبعت به كاتبتنا– ليؤكد مصداقية فكرتها، ومعقولية تصرفاتها، وتبرير أحداث حياتها، وشرعية سلوكياتها، بل اتضحت العلاقة القائمة بين النص المقتبس ومحتوى السيرة وأفكارها، كما ضمن لها البقاء والاستمرار من خلال ضمان تعاطف القارئ وتشبع يقينه وتماهيه.

أما الاقتباس الإشاري (٣) ، والذي يُكسِب التعبير جمالية دلالية وقيمة فنية للمسحة القرآنية التي يضعها في تعبيره، وغالبا ما تكون الإشارة أبلغ من التصريح، ومنه قولها في تصوير بيت جدها وتقدم أعمار خادميه، وتقرير حالهم:" بينها أدوار مسحورة، يقيم فيها معتوقو الجد، وقد بلغوا من الكبر عتيا(٤)"، وهو مقتبس من قوله عز وجل: {قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٥)}، ومنه أيضا وصفها لوقفتها التي طالت على باب الجامعة: "ولمدى عام كامل بقيت واقفةً تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم. لم يكن قد بقى لي إلا أن أنكص على عقبي وأكر راجعة من حيث أتيت، لكني لم

(١) سورة النساء– ١.

(٢) على الجسر، ص١١٧.

(٣) والذي يكتفي الأديب فيه بالإشارة إلى آية من آيات القرآن الكريم من غير أن يلتزم بلفظها أو تركيبها– ينظر: القيم الجمالية في الشعر الأندلسي –عصر الخلافة والطوائف، د. آزاد محمد كريم الباجلاني،ص ٢٩٧.

(٤) على الجسر، ص١٥.

(٥) سورة مريم– ٨.

أفعل [١]". وهو مقتبس من قوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ[٢]}، ومنه أيضا قولها: " ومن عجبٍ أني عصيت على كل تلك الجواذب والمغريات، وبقيت واقفةً حيث انتهى بي الشوط عند باب الجامعة الموصد لا أبغي عنه حولا[٣] "، فقولها (لا أبغي عنه حولا) مقتبس من قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا[٤] } ، وهنا يتضح اتساق المقتبس(التناص) مع الفكرة والغرض، فقد أوحت بموقفها الثابت وطموحها الشائم إلى بلوغ غايتها بحال أهل الإيمان وغايتهم وطمعهم في جنة ربهم لا يثنيهم عن هدفهم مغريات ولا تردهم ملهيات.

ومنه أيضا قولها:" وتشابهت السبل عليَّ في هذا المفترق من الطرق، فلم أعد أدري أي هذه الحواجز يبقى راسخًا في موضعه، وأيها يريد أن ينقض! فليستجب الله لدعاء أبي، وليأخذ بيدي على الطريق[٥]"، فقولها: وأيها يريد أن ينقض مقتبس من قوله تعالى:{ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ [٦]} ، وفيه تناسق وانسجام مع الفكرة، فالصورة القرآنية لجدار عفى عليه الزمن، وأوشك على الانهيار، فأرادت الكاتبة أن تدلل على حيرتها وتشتتها بين القديم التالد والحديث الطارف، وأيهما سينتصر في معركة الفكر والتوجه، وأيهما سينهار كانهيار الجُدُر البالية.

ومن خلال تلك النماذج التناصية اتضح التمازج بل الاتحاد بين الصورتين المقتبسة والمقتبس لها؛ مما يعطي للكلام بُعدًا تعبيريًّا وجماليًّا.

---

(١) على الجسر، ص٦١.

(٢) سورة الأنفال- ٤٨.

(٣) على الجسر، ص٦٢.

(٤) سورة الكهف- ١٠٧، ١٠٨.

(٥) على الجسر، ص٩٠.

(٦) سورة الكهف- ٧٧.

كما أن في تدفق الاقتباسات (بالنص أو الإشارة) ما أعطى دلالة روحية وحجة قوية وقيمة فنية وجمالية للمعنى المراد التعبير عنه، وجعل المفاهيم الوجدانية لدى كاتبة الذات أوثق وأقرب إلى إدراك المتلقين، وأشد تأثيرًا على قلوبهم، ولعل مرد ذلك – من وجهة نظري – براعة وذكاء بنت الشاطئ في المزج بين اللفظ القرآني والمادة السردية، فظهر الأداء الجمالي والدلالي، كما يبرهن على ارتباط كاتبتنا في حياتها بالقرآن الكريم ونصوصه سواء بالنص أو الإشارة والتلميح، ولِمَ لا ؟! فقد عاشت بالقرآن وللقرآن، عليه تربت وله أوقفت قلمها ردحًا من الزمان، كما أنه كان مصدر فكرها ومعين ثقافتها، فلا عجب أن يرتبط قلمها في كتابة سيرتها بالقرآن الكريم ونسمع صداه في سردها، فهو النص الأعلى والمقدس والمسيطر الذي لم يتوفر لغيره من النصوص ما توفر له من طلاقة الإعجاز وسلامة البيان.

وهنا تتضح قيمة الخلفية المعرفية والثقافية للكاتب لذاته، فإن لها دورًا كبيرًا في تحديد هوية النص والعوامل المؤثرة التي نشأ فيها، فقد وسمته بميسمها، وجعلته متفردًا عن غيره من النصوص، ذلك أن صيغ تشكيل النص وطرائق بنائه وطبيعة أساليبه هي التي تصنع الفوارق بين الأعمال الأدبية ذات الجنس الواحد من خلال ما يصبغه الكاتب عليها بصبغته الخاصة.

المطلب الثالث:الاستفهام

الاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبي، والاستفهام والاستعلام، والاستخبار بمعنى واحد، وهو طلب العلم بشيء لم يتقدم له به علم بأداة خاصة[١].

وتتنوع أساليبه، وتتعدد أدواته، ومعانيه ودلالاته، ولهذا تكثر استعمالاته.

والاستفهام من أهم الأساليب التي تحرك مشاعر المستمعين، ويحرص الأدباء على توفرها في أعمالهم حتى لا تكون على وتيرة واحدة، فتفقد تأثيرها.

(١) ينظر:التطبيق النحوي، د.عبده الراجحي،ص٢٩٩ ، ط/دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨م.

ويعطي الاستفهام من خلال حروف معينة وأسماء محددة معنى خاصًّا إضافة إلى المعنى الأساسي الذي وضعت من أجله (وهو الاستفهام أو السؤال)، يستثار به الوجدان، ويكثف من دلالته، ويعطي الكلام بُعدًا استحضاريًّا في ذهن المتلقي "لأن استفهام الأديب – على الرغم مما يتضمنه من دلالات– يعني أنه لم ينته بعد إلى قرار، وأنه ما زال ينتظر موافقة الآخرين، وكأن ما يراه ليس أمرًا مسلمًا، وأن هناك جدلًا بينه وبين نفسه، أو بينه وبين غيره لم ينته فيه إلى قرار[١]".

والاستفهام في سيرة بنت الشاطئ على تعدده لم يأت لمعنى الاستخبار (معناه الأصلي) إلا في ظاهر التركيب، والكاتبة في ذلك تخرج به إلى معانٍ كثيرة تقصدها، ولها منه مآرب، فقد زادت به استثارة القارئ وتعاطفه وتواصله وتماهيه مع النص السردي، ومن ذلك ما جاء في معرض حديثها عن طفولتها وتشويق الكاتبة للقارئ، وتبرير العودة للطفولة، بقولها:" كيف سارت بي الحياة قبل أن ألقاه؟ في ذاك الفصل من قصتي أعود إلى طفولتي الباكرة، فأسترجع من ذكرياتها ما لم تطوه الأيام والليالي في متاهة النسيان[٢]".

ومنه قولها في حديثها عن أزمة عدم توفر فصول دراسية للصف الثاني في مدرسة حلوان: "وغشيني ما يشبه الدوار لحظة كانت نفسي خلالها تفتش عن خيط من الرجاء يعصمني من الانهيار، وتماسكت وأنا أردد وكأني أخاطب نفسي:هل أستطيع الانتظار إلى العام التالي حيث تكون المدرسة افتتحت فصولا للسنة الثانية؟[٣]"، وبهذا الاستفهام الذي خرج – بالانزياح –إلى الأسى والحسرة والاستبعاد، والذي ينقل القلق الذي كثيرًا ما انتاب الكاتبة وسيطر على مشاعرها،

(١) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، د. حسني عبد الجليل يوسف، ص ٣،ط/ دار الثقافة للنشر والتوزيع– القاهرة د. ت.

(٢) على الجسر، ص١٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٩.

ومن ذلك أيضا قولها في رفض الجامعة قبولها بنظام الانتساب:"ولمدى عام كامل بقيت واقفةً تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم، لم يكن قد بقى لي إلا أن أنكص على عقبي وأكر راجعة من حيث أتيت، لكني لم أفعل، فهل كان إصراري على الوقوف هروبًا أحمق من مواجهة صدمة الخيبة بعد كل الذي كابدت؟ أو كان استجماعًا لقواى تأهبًا للجولة الجديدة في المعركة بعد أن أجهدتني الجولات السابقة؟[١]"، وفيه يكمن معنى التعجب والاستنباط والتشويق، خاصة أنها عقبت على موقفها وبررت فعلها بقولها: "لم أكن أدري على وجه اليقين، وإن أحسست أن هناك قوة خفية وراء أبعاد المنظور تقيدني إلى ذلك الباب الموصد، وتحول بيني وبين طريق الرجوع[٢]".

كما جاء الاستفهام في سيرة بنت الشاطئ يحمل معنى التقرير[٣]، وذلك عند حديثها عن المشيئة العليا التي أوقفتها على باب الجامعة ولم تثنها عنه، وأنها لم تعص أباها عن رغبة منها أو ضعف تربية أو انحراف سلوك: "وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر فى دوامة القلق والحيرة، فيحميني من السكون إلى راحة اليأس، كما كان يردنى إلى شيء من سكينة النفس وراحة الضمير كلما ساورني الخوف من عاقبة عصياني لوالدي التقي الصالح، واتجاهي إلى طريق غير الذي رضيه لي، أوليست تربيته الدينية لي هي التي رسخت عقيدتي في اليقين بأن (المكتوب على العين لازم تشوفه العين)؟ أوليس هو الذي لقنني أن أمر الله نافذ، وكل ماقدر يكون؟(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ)، (وَمَا

(١) المرجع السابق، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

(٣) والمراد بالاستفهام بمعنى التقرير :أن يقر السامع بصحة ما تتحدث عنه، ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن قيم الجوزي محمد بن أبي بكر الزرعي(ت ٧٥١هـ)، ص ١٧٨ط/ مكتبة المتنبي بالقاهرة.

تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ)[١] "، وقد أرادت من خلال الاستفهام الإنكاري –الذي يحمل في طيه التقرير– أن تقنع نفسها وقارئها بصواب ما مضت إليه؛ متخذةً من الاستفهام مع الاقتباس عونًا على إقناع المتلقي وإرضاء نفسها،لا سيما وأنها أجابت عن سؤالها بـ"بلى!"[٢]".

ومما جاء في سيرتها من الاستفهام خارجًا عن معناه الحقيقي إلى النفي والاستبعاد والتشويق قولها عن تلمذتها للأستاذ الخولي قبل لقائه:" فماذا عسى الأستاذ الخولي أن يقدمه لي في البلاغة والتفسير، وقد تلقيتهما على شيوخٍ كبار من علماء هذه البضاعة [٣]"، وكأنها تستثير بهذا السؤال وجدان القارئ لمتابعة ما سيسفر عنه اللقاء، ومدى ما يضيفه لها الأستاذ في رحلتها العلمية، وهل سيكون لقاءً صداميًّا، خاصة وأنها عنونت الجزء التالي من سيرتها بمنطقة الضباب.

ومن الاستفهام الذي حمل معنى الإنكار[٤] والنفي والاستبعاد ما روته على لسان شيخها الخولي بقوله لها:"ومن قال بأن طالب العلم يستطيع أن يصل بالبحث إلى غايته؟ [٥]"، ففي هذا الاستفهام المضمن معنى الإنكار والنفي والاستبعاد تؤسس الكاتبة لمفهوم البحث العلمي ومهمة الباحث.

ومن أرق وأعذب الاستفهامات في سيرة بنت الشاطئ ما ختمت به سيرتها بعد رحيل زوجها وأستاذها بقولها:" هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة لمسعاي إليه ولقائي به؛ لتؤنس وحشة الفراق إلى أن يحين الأجل، فألحق به

(١) على الجسر، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٧٠.

(٤) ينظر:والاستفهام بمعنى الإنكار حاصله راجع إلى تثبيت السامع على فساد ذلك المعنى حتى يرجع إلى نفسه، ويرتد عن قناعته. ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن قيم الجوزي، ص ١٧٨.

(٥) على الجسر، ص١٠٦.

ويلتئم الشمل مرة أخرى في عالم الروح؟....وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالًا ونضرة، من بعده، وأندر شجاعة وحكمة، فكيف عساها تبدو لي؟ ... كيف مضى وبقيت؟ أهو ابتلاء لإيماني ببشرية الإنسان إذ أشهد الموت يغتال من كان يعطي الحياة حياة، ويفيض عليها جمالا من شجاعته وحكمته، وذكائه وفروسيته؟ ... فهل هو الموت لا يرى فينا إلا اثنين لكل منهما أجله المقدر بالثواني، وعمره المحسوب بالأنفاس؟... أم لعلها الحياة أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان؟ ....أم لعله القدر أراد أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة فأبلو حزنها كما بلوت نعمتها الكبرى وفرحتها العظمى؟ (١)".

بهذه الاستفهامات المتعددة ختمت بنت الشاطئ سيرتها حاملة معنى التمنى(هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة؟)، والأسى والحسرة(فكيف عساها تبدو لي؟) والتعجب (كيف مضى وبقيت؟)، والتسوية والاستنباط (أهو ابتلاء لإيماني ببشرية الإنسان؟.. فهل هو الموت لا يرى فينا إلا اثنين لكل منهما أجله المقدر بالثواني.. ؟.. أم لعلها الحياة أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان؟ ....أم لعله القدر أراد أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة؟).

وبذلك يتضح مدى توظيف بنت الشاطئ لأدواتها الفنية في تصوير الأبعاد النفسية لديها، وبيان المعاني ودلالتها، وجذب القارئ من خلال سعة المدى المعنوى للاستفهام وتنوع إيحاءاته، بما حمله الاستفهام عندها من دلالات متعددة ومتنوعة انزاح فيها الاستفهام عن دلالته الحقيقة؛ ليكتسب دلالات مجازية متنوعة وفق السياق الذي أتى فيه، كالنفي –التقرير – الإنكار – التمني – الاستنباط – التشويق – التعجب –الاستبعاد –الأسى والحسرة – التسوية... دون تكلف أو تصنع؛ مما زاد من جمال تراكيبها، وبعدها الدلالي في حلل قشيبة من الأداء الفني العالي.

---

(١) المرجع السابق، ص، ١١٦،١١٧.

وكان لكثرة استعمال (هل) – في غالب استفهاماتها– بما تحمله من التصديق وإدراك الحكم وإبراز ما يحصل في صورة ما هو حصل دلالة على كمال العناية بحصوله[١]– دلالة على وعي بنت الشاطئ بأدوار أدوات اللغة في إثارة ذهن المتلقي، وتجلية الصوت الخفي في داخلها، كما كان له دور قادح في تنشيط الشعلة الدلالية وتوافقه مع المواقف المراد التعبير عنها دفاعًا أو إقناعًا.

المطلب الرابع: مرجعيات سيرة بنت الشاطئ الذاتية.

أولًا: الزمان والمكان.

ترتبط الشخصية مع الزمن والمكان بعلاقة جدلية يتأثر كل منهما بوجود الآخر، فالزمن يحتوي الإنسان بين قطبي(البداية والنهاية)، حيث يولد ويكبر، ويمر بمراحل التكوين المتوالية، فيزداد وجود المرء الإنساني كثافة وثراء كلما تقدم به الزمن وتدفق في مجرى شعوره بمروره سريعًا أو بطيئًا، والمرتهِن بالحالة الشعورية "فعمر الإنسان الحقيقي لا يقاس بالسنوات، وإنما بالحالة الشعورية التي يمتلكها ويسيطر عليها، فالزمن الحقيقي هو الزمن النفسي، وليس زمن الساعة[٢]".

هذا، ولما كان البحث يروم الاستكناه عن مرجعيات السيرة التي منحتها ملامحها الفارقة، ومن خلال معايشة الزمان والمكان عند كاتبتنا نجد نص سيرتها الذاتية تموج مضامينه بمراحل حياتها، وأماكن تنقلاتها، وما فيها من حركة وسكون، وما حفلت به من ألم وأمل، " وما الانتقال إلى سرد أطوار الطفولة وما بعدها إلا ذلك الصعود في الزمان والمكان في محاولة لاكتشاف الهوية وبناء مداليلها الرامزة للكينونة الفردية المطلقة[٣] ".

---

(١) زهر الربيع ، أحمد الحملاوي، ص٥٦.

(٢) الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي ، ص ١٤٩، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٤م.

(٣) الكتابة والوجود –السيرة الذاتية في المغرب، عبد القادر الشاوي، ص١٧٩.

كما نجدها أكثر ارتباطًا بزمن الطفولة، وحينما تتكلم الذات عن هذا الزمن والنشأة الأولى، فإنها تتحدث عنه انطلاقا من وعيها به في حاضر الكتابة، والنظر إليه لا كتاريخ ميلاد ونشأة فحسب، ولكن بوصفه محطة زمنية مهمة من محطات الحياة، تقول في وصف طفولتها: " حين بدأت أعي خطواتي على الدرب، كنت في ملعب طفولتي على شط النيل بمدينة دمياط العريقة، حيث يقوم بيت جدي لأمي الشيخ (الشيخ إبراهيم الدمهوجي الكبير) مطلا على النهر، عتيقًا شامخًا تضرب أسسه الصخرية في ماء النيل، ويمتد الأفق أمامه، من ناحيتي الشمال والغرب، فسيحًا رحبًا إلى غير مدى.. [١] ".

وللعناية بمرحلة الطفولة ومراعاة التدرج الزمني مرورًا بمراحل العمر المتعاقبة أهمية بالغة في بناء السيرة الذاتية، فمن خلال العرض الزمني نتلمس تطور الشخصية وأطوار تكوينها وصقلها، ومدى تطور تفكيرها، وتأثرها بالمحيط، كما يمنحنا " سيرة ذاتية متماسكة الأطراف مترابطة البنيان، ولتلك المرحلة البعيدة تأثير ما في تكوين الشخصية في مراحلها المتعاقبة... ولذا فإن ذكريات الطفولة لها خطرها في بناء الترجمة الذاتية لقيمتها النفسية والأدبية" [٢].

ومن خلال مطالعة سيرة بنت الشاطئ ومعايشة وعيها بالزمان والمكان وتأثرها بهما في تكوين شخصيتها يتضح إدراكها لقيمتهما في بناء السيرة الذاتية، وحسبانهما واقعًا متجانسًا منهما تكونت شخصيتها، " أعود إلى طفولتي الباكرة، فأسترجع من ذكرياتها ما لم تطوه الأيام والليالي في متاهة النسيان، وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سياق الفصول التالية من قصتنا غير أني أريد لألتقي فيها

(١) على الجسر، ص ١٤.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحي إبراهيم عبد الدايم ، ص١٥٠.باختصار وتصرف يسير.

بتلك الصبية التي حملت ملامحي الأولى، وأُميِّز في آثار خطاها تلك المرحلة التي أسلمتها إلى دربه من حيث لا تدري[1]" .

ومن خلال ترتيب الأحداث ببدايتها ونهايتها ضمن سياقها الزمني تتجلى مقدرة بنت الشاطئ على إيداع مشاعرها وذكرياتها في سردها الزمني.

كما تتأتى جمالية التوظيف الزمني عن مهارة في تنسيق الأحداث ضمن أطرها النصية، وتوزيعه على أطوار الحياة، وهذا مما يحقق لمتلقي السيرة الذاتية متعة جمالية مصطبغة بأنواع الانفعالات والمشاعر، بفضل قدرة المبدع على أدواته المضمونية، وأبرزها المكونان الزماني والمكاني ، كما يبرز كيفية التعامل مع الزمن في تجلياته الخطية والنفسية، وفنية تصويره إبداعيًّا، والانتقال بها إلى مستوى الجمالية، وقد برعت بنت الشاطئ في رسم المتدرج الزمني ومراحل حياتها في خطواتها الأولى حتى نهاية المطاف والارتباط بأستاذها الخولي حتى الفراق، واضعةً بين يدي القارئ سيرة ذاتية متماسكة متناغمة واعية بحركية الزمن وعبقرية المكان.

وقد كشفت كتابة الذات (بنت الشاطئ) عن وعيها بقضية الزّمن وحركيته والذي يجسد إحساسها بالحنين، إحساسًا نابعًا من متعة التذكّر التي تنشد الاكتمال بمشاركة الآخرين هذه المتعة.

وهكذا تكتسب عملية كتابة الذّات قيمتها في نقل وعي الكاتب بذاته وبأهميّتها، وبأنّ الحياة الّتي تسردها جديرة بأن تروى.

وإذا كان لكل إنسان زمنه النفسي الخاص المتصل بوعيه ووجدانه وخبرته الذاتية، فلا يخضع لقياس الساعة مثلما يخضع الزمن الموضوعي، هو زمن يتجاوز الحدود الزمنية الخارجية (الماضي، الحاضر، المستقبل) تتحرك فيه" الأنا بحرية في اتجاهات مختلفة ومتداخلة، والزمن يسيل وتدور عجلته وفق الإيقاع

(١) على الجسر، ص١٤.

الداخلي للذات الإنسانية؛ حيث تستحضر الماضي عبر الذاكرة في لحظة الحضور وتتمثله، أو يتجلى المستقبل عبر الحلم والتوقع في لحظة الحاضر، وقد يتباطأ الزمن في لحظة ضجر وانتظار، أو يتسارع في لحظة فرح، فتكون حركة الزمن وإيقاعه مرهونة بإيقاع المشاعر والأحاسيس(١)". هذا ويبرز الزمان عند كاتبتنا حالة نفسية وليس تاريخًا موضوعيًّا، ويتضح ذلك من قولها:" تتماحى الحدود والفواصل بين الحاضر المفجع، والماضي السعيد الحافل، والغد المحجب في ضمير الغيب المطوي في غيابة المجهول، وتتداخل الأبعاد والآماد؛ حيث أقف على الجسر ما بين الحياة والموت.. وإلى أن يحين الأجل سأظل معلقة بين الحياة والموت لا أدري إلى أيهما أنتمي، وعلى أيهما أحسب.... إلى أن يحين الأجل سأبقى محكومًا عليَّ بهذه الوقفة الحائرة على المعبر ضائعة بين حياة وموت، أنتظر دوري في اجتياز الشوط الباقي(٢)".

وبهذا النص وغيره تبرز جمالية التوظيف الزمني المصطبغ بالانفعالات والمشاعر عند بنت الشاطئ، والذي بدأ باللحظة الآنية التي استثيرت فيها صور الماضي، وانتهى بتحقيق تتابع زمني متجدد للأيام وتعاقبها لاسيما زمن الامتلاء والامتلاك، يبرز فيه تاريخ الشخصية بمنحى تصاعدي هو ختام العملية السردية؛ التي تضفي على حياة الأشخاص الحيوية والقبول.

ولم يكن المكان بمعزل عن فنية السرد عند كاتبتنا، فقد حظى بتسليط الضوء عليه يقينا بقيمته في إثراء النص السردي عن الذات وأنه وحدة أساسية من وحدات العمال الأدبيّ، وركيزة من ركائز الرؤية وجمالياتها، فهو فضاء تدور فيه العلاقات الاجتماعية، والعاطفية، وهو " المأوى والانتماء ومسرح الأحداث، حتى إن المكان

(١) الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي ، ص٢٤.

(٢) على الجسر، ص، ٨،٩.

الذي ينتمي إليه الإنسان يتخذ في بعض الأحيان طابعًا مقدسًا لأن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة متجذرة[١] ".

وللمكان عند بنت الشاطئ أبعاد نفسية فضلًا عن أبعاده الفنية، فهي لا تنسى مهما امتد الزمن البيت الذي نشأت فيه، بل تصفه تفاصيله وتصوره بدقة متناهية وكأنها ترسم لوحة جدارية ، فتقول: "حين بدأت أعي خطواتي على الدرب، كنت في ملعب طفولتي على شط النيل بمدينة دمياط العريقة، حيث يقوم بيت جدي لأمي الشيخ (الشيخ إبراهيم الدمهوجي الكبير) مطلاً على النهر، عتيقًا شامخًا تضرب أسسه الصخرية في ماء النيل، ويمتد الأفق أمامه، من ناحيتي الشمال والغرب، فسيحًا رحبًا إلى غير مدى، وعلى حافة النهر، أمام الدور الأرضي، شرفة بمعرض البيت، تفضي من جانبيها إلى الماء بسلالم من حجر، تنكشف درجات منها تباعا عندما يتخفض مستوى النهر في موسم التحاريق، ثم تغمرها مياه الفيضان فلا يكاد يبدو منها غير أطرافها العليا..

والمدخل الشمالي للشرفة، يفتح بباب على رصيف عريض ممتد إلى مسافة طويلة، مرسى للسفن الشراعية حين تئوب من رحلاتها عبر البحر المتوسط، إلى بلاد الشام وقبرص والأناضول، فيشدها الملاحون بسلاسل إلى أوتاد حديدية مثبتة على الرصيف، ويمضون بعد تفريغ حمولتها لقضاء أيام مع أهلهم بالمدينة وشطوطها.

أما المدخل الآخر للشرفة، فكان بابه يفتح على منقة الماء قريبة الغور، محجوزة بجدران خشبية ساترة، اعتادت سيدات الأسرة الاستحمام فيها، إذ تتحول في موسم التحاريق إلى حمام بحر لحريم البيت، عندما يجور الماء المالح على

(١) جماليات الأسلوب والتلقي، موسى ربابعة، ص٧٤،ط أولى ، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٨ م.

النيل إلى مسافة أميال من المصب، يبدو النهر خلالها كأنه خليج ممتد من البحر المالح.

وخلف الشرفة، قاعة كبرى لاستقبال الضيوف والتجار المتنقلين ما بين مصر والشام، تعلوها طبقات ثلاث، بينها أدوار مسحورة، يقيم فيها معتوقو الجد[١] ".

فهذه الصورة بكل أبعادها تفوح منها رائحة الأيام الخالية والأجيال السالفة وعبق التاريخ، وتطل منه مراتع الطفولة والصبا، وجذور النشأة العتيقة.

وإذا كان بيت الجد يمثل الارتباط بالماضي والألفة، فهناك أمكنة أخرى ذكرتها، لكنها تمثل بعدًا آخر هو فضاء العقبة كوقفتها أمام باب الجامعة:" وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة إلى باب الجامعة أحمل شهادة البكالوريا.. وهناك ألفيت الباب موصدا في وجهي بقضبان من فولاذ. [٢]" وكما كان بينها وبين بعض الأماكن انسجام وارتباط أدى إلى الألفة معها، كان هناك عدم انسجام أدى إلى عداء وصراع مع أماكن أخرى، مثل موقفها من المدينة وأهلها، " وشحذت خَفيَّ تأهبًا لمقاومة كل سحر من بضاعة العاصمة التي نزحت إليها من الأقاليم، وأقمت حواجز عازلة بينها وبين ذاتي كي أصونها من المسخ والتشويه ولا أفقدها في ضجيج الزحام[٣]".

ومن خلال هذا النص تتبين علاقة بنت الشاطئ بالمدينة كبيئة فُرِضت عليها مغايرة لبيئتها الأولى في دمياط في تقاليدها وأعرافها، وظل هذا الشعور العدائي بينها وبين المدينة يتمادى والصراع يزداد كلما تقدمت بها الأيام.

ومن مما سبق يتضح أن للمكان مع الزمان في مسيرة بنت الشاطئ دلالة نفسية خاصة؛ إذ إن العلاقة التي كانت بينها وبين المكان والزمان لم تكن علاقة

---

(١) على الجسر، ص، ١٤،١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

(٣) على الجسر، ص٧٦. باختصار

وصفية مقتصرة على تصوير ما هو مرئيّ وملموس، وإنما كانت علاقة دلالية، وجمالية، وتعبيرية، وانفعالية.

ثانيًا: الشخصيات.

تمثل الشخصيات في كتابة الذات دورًا أساسيًّا، فلا يمكن أن تكون هناك سيرة بلا شخصيات سواء أكانت شخصيات أساسية أم فرعية(ثانوية)، والشخصية الرئيسة في السيرة الذاتية هي الشخصية المحورية التي تدور حولها جميع الأحداث، وهي شخصية الكاتب لذاته، والتي تمثل " واسطة العقد بين المشكلات الأخرى جميعها؛ إذ هي التي تصطنع اللغة، وهي التي تبث الحوار أو تستقبله، وهي التي تصنع المناجاة، وهي التي تصف معظم المناظر وهي التي تنجز الحدث، وهي التي تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جميلا[١]".

ولا يخفى أن الشخصية الرئيسة التي برزت في سيرة (على الجسر) هي شخصية بنت الشاطئ (المؤلف)؛ إذ كانت الأحداث كلها تدور حولها، تحكي قصتها وتبرز معاناتها، وتوضح مأساتها، وتكشف طموحاتها التي عاشت لها، وتحملت من أجلها الكثير من العنت والتعب، فكانت سيرتها عرضًا لذاتها على القاريء، وتقديم نفسها من الداخل" فالسيرة الذاتية ليست سيرة الأعمال والأحداث نفسها، ولكنها سيرة إنسان يعمل، وعلى ذلك تكون الشخصية قبل الحدث، الشخصية في تطورها، وأثر الحدث الخارجي في تحريكها... وكاتب السيرة يقدم نفسه على موج الأحداث وليس مؤرخًا تبتلعه الأحداث[٢]" .

وقد لعبت شخصية بنت الشاطئ في سيرتها دورًا رئيسًا قدمته بعدة أساليب كشفت من خلالها عن الأحاسيس الباطنية والمشاعر الدفينة، التي ارتبطت بنفسها المتألمة الطموحة، وصراعاتها التي لم تنته، لكنها أنضجت شخصيتها وطورتها،

---

(١) في نظرية الرواية، د.عبد الملك مرتاض، ص ١٠٤.

(٢) السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ص٢٥١.بتصرف واختصار.

فقد اعتمدت على **الأسلوب التصويري** في رسم الشخصية وتقديمها؛ إذ عمدت إلى تركيز الضوء على مسار تحركاتها، ورصد أفعالها في المواقف، فعرضت ذاتها على القارئ من الداخل، ومدى انفعالها بالأحداث وتأثرها النفسي بها، كوصفها لحالة الحيرة والقلق التي انتابتها بعد حديث شيخها دسوقي جوهري عن الأستاذ الخولي: " وعدت إلى دارنا ساهمة واجمة، ألتمس خلوة بالمكتبة ريثما أجمع شتات نفسي المبعثرة... وأحاول أن أهرب من حيرتي بالمطالعة في كتب العلماء الذين ألفت صحبتهم، فيختلط كلامهم في مسمعي بصوت الشيخ دسوقي جوهري وهو يحدثني عن حق هذا الجيل في أن يبدأ من حيث انتهى سلفه، وحق العصر في أن يضيف جديده إلى تراث العصور الخالية.

ولأول مرة منذ صحبت أولئك العلماء من أئمة السلف الصالح بدأت أتساءل في أسى: هل يأتي يوم أتخلى فيه عنهم، وقد كانوا مني ملء العقل والروح؟ ولأول مرة كذلك بدأت أرتاب فيما اطمأننت إليه من أنني على وشك تصفية حسابي مع الجامعة.... وتكاثفت الظلال على الأفق مختلطة بالأضواء التي سطعت بغتةً من حديث الشيخ الجليل، فكشفت لي مناطق مجهولة وراء حدود دنياي المقفلة بحواجز ظننتها آخر حدود العالم.

وتشابهت السبل عليَّ في هذا المفترق من الطرق، فلم أعد أدري أي هذه الحواجز يبقى راسخًا في موضعه، وأيها يريد أن ينقض! فليستجب الله لدعاء أبي وليأخذ بيدي على الطريق[١]".

كما اعتمدت أيضا على **الأسلوب التقريري** الذي سعت بنت الشاطئ من خلاله إلى إبراز ملكاتها وأسباب تميزها، ومن ذلك ما سجلته من زهوها بتفوقها على أقرانها: " لقد استطعت بما تزودت به من طاقة على الدرس أن أُحَصَّلَ علوم المدارس وأُأَدي أربعة امتحانات عامة بنجاح، لكن ما من واحدة من طالبات

(١) على الجسر، ص٨٩.

المدارس تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه التي درستها في بيتنا، ولطالما حرصت على التلكؤ في قاعات الامتحان الشفهي، بعد دوري في أدائه؛ لأتفرج على الزميلات وهن يتعثرن في تلاوة آية قرآنية من قصار السور، ويقرأن النص من الشعر أو النثر قراءة مضحكة مبكية، تمسخ النص أعجميًّا[1]".

وقد أدى التنوع الأسلوبي في عرض شخصية الكاتب لذاته إلى تماسك النص، واحتباك السرد، وتأكيد البعد الواقعي في الشخصية، وأن الشخصية الرئيسة في سيرة بنت الشاطئ الذاتية، كانت شخصية المؤلف، والأحداث كلها دارت حولها؛ أما الشخصيات الثانوي، فمنها ما كان ناميًا فاعلًا في حياتها كشخصية أبيها التي ظلت تطاردها بالرفض لاستكمال دراستها، والخوف من غضبه وعصيانه، أو شخصية زوجها وأستاذها التي رددت اسمه وصفاته في مواضع متعددة، ومنها ما كان محدود الدور في السيرة جاء ذكره عابرًا؛ للتمهيد لذكر موقف أو قصة، كذكر جدها لأمها وموقفه من استكمال تعليمها، وأمها التي شاركتها معانة بداية مسيرتها، ومنها شيخها دسوقي جوهري الذي أثناها عن قرار ترك الجامعة، أو مديرات المدارس التي قابلنها في مراحلها التعليمية، أو صديقتها تحية ماهر صاحبة التُرمُس، أو الحاجة لبيبة أحمد صاحبة مجلة النهضة النسائية..

كما جذبنا السرد وشدنا النص إلى علاقة الساردة بمحيطها الخاص، أي علاقتها بأمها وجدها (الحب مع العطف والمساندة)، وعلاقتها بالأب (السجن مع المهابة والرهبة)، وعلاقتها بالزوج(المعلم والمعشوق)، وعلاقتها بالماضي ككل (الاستذكار)، إلى جانب مظاهر العالم الخارجي الذي يؤطر وجودها (بيت جدها، قريتها، المدرسة، اللعب، الشاطئ، التعلم، الجامعة..) والذي يوحي في النص بفكرة الاكتشاف، ويحمل إلى المعرفة بعدًا تواصليًّا حميميًّا خاصًّا.

(١) المرجع السابق، ص٦٧.

ثالثًا:الأحداث.

ما من كاتب لذاته إلا مر بأحداثٍ كانت علامةً فارقةً في حياته، وميزته بين أقرانه أو صاغت شكل حياته وأسلوب تفكيره، وتمثل الأحداثُ ركنًا أساسيًّا من أركان السيرة الذاتية، وركيزة ذات دور عضوي فاعل يعتمد عليها الكاتب لذاته في بيان المؤثرات التي أثَّرت في شخصيته وأثرتها، مع عنايته بواقعية الحدث ومطابقته لما مر به، لضمان الصدق وتوثيق العلاقة بينه وبين القارئ، والوفاء بالميثاق المعقود بينهما، ليتم بينهما التراسل الشعوري، وهنا يخالف كاتبُ السيرة الذاتية الكاتبَ الروائي(١).

وكاتب الذات –على العموم – ينشغل بالأحداث؛ لارتباطها بشخصيته وعدم انفصالها عنها، ولما تلقيه عليه ظلالها من تأثيرات وإيحاءات.

هذا، وقد اعتنت بنت الشاطئ بإبراز الأحداث ذات التأثير الكبير في حياتها، أو حياة من حولها والمحطات الزمنية التي بدأت من قبل مولدها بغرق جدتها لأمها في النيل، ومدى تأثير ذلك في علاقتها بالنيل(٢)، ثم ذكر مراتع الطفولة وملاعب الصبا، مرورًا بمراحل تعلمها وما لاقته فيها من صد وعناد، ودوافعها النفسية والروحية على المواصلة حتى الالتقاء بالأستاذ الخولي، والتتلمذ على يديه إلى الفراق الفاجع الأليم، وقد قدمت شخصيتها وكشفت عن حياتها وتطوراتها من خلال الأحداث المتموجة التي كانت بمثابة مفاتيح لفهم نفسيتها وشخصيتها.

وبنت الشاطئ لا تستدعي هذه الأحداث رغبة في تخليدها أو الإشادة بمشوارها ولا لمجرد التذكير بماضيها وأمجادها، وإنما لتوليد طاقة دلالية في جنبات السيرة وقيام رابطة قوية بين الشخصية والحدث، ولإظهار مدى قدرتها على التحمل، وتمسكها بآمالها، والربط على طموحاتها، وعدم الخنوع أمام التهديدات أو الانكسار أمام المغريات، أو الفاجعات.

---

(١) ينظر: تداخل الأنواع الأدبية وشعرية النوع الهجين، د. عبد الناصر هلال، ص ٩١،ط/ النادي الأدبي الثقافي بجدة العدد١٦٤، ١٤٣٣هـ.

(٢) ينظر: على الجسر، ص١٧.

كما تظهر مهارة تنسيق الأحداث عند بنت الشاطئ واختيار الأحداث المترابطة وتوظيفها؛ لتتآزر على نقل التجربة والرؤية والإيحاء أو الإشارة؛ كرؤاها المنامية التي كانت تمنحها القوة والعون على استكمال مسيرتها؛ موظفةً تأويلات تلك الرؤى كإرهاصات بالمستقبل، ولما ستظفر به في حياتها؛ ليبقى الحدثُ ومضةً تاريخية مرت وخلَّفت دلالةً خاصةً وملمحًا مميزًا من سيرتها.

كما جاءت بعض الأحداث كاشفة للواقع ومعرية للحقائق الاجتماعية التي عاشتها بنت الشاطئ، من ذلك ما ذكرته عن تدخل الوفد في الحياة الجامعية[١]، فقد رصدت الكاتبة هذه الأحداث؛ لتبرز موقفها من المدينة وصخبها وجور أهلها، وتوظفه كرمز للتعبير به عن فكرة تريد إيصالها إلى وعي المتلقي، كذلك بما كان يحدث في زمنها من تسلط السلطة على مقدرات المجتمع وثوابت وأعراف الحياة الجامعية، ومن ذلك أيضا أحداث كبرى عباس، وموقف الجامعة من شهداء الحرية الذين سقطوا من أبنائها[٢].

ليتبن لنا أن الأحداث في سيرة بنت الشاطئ كانت بمثابة رافد ثر تمت الإفادة منه في خدمة الفكرة العامة للسيرة وللغرض الذي أنشئت من أجله.

وأن كاتبتنا أجادت في توظيفها لتساند أفكارها وتكوِّن رؤيةً عامة متكئة على ثراء سيرتها بالأحداث ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية والإنسانية.

وبهذا نختم مسيرتنا مع سيرة من عيون السير الذاتية في الأدب الحديث، راق لي أسلوبها واستمتعت بحديثها الشجي الحزين المفعم بالتحدي والإصرار، وآمل أن يكون ما كتبت إضافة للتأثير وانطلاقة للانفتاح على النص، ونافذة جديدة تنفذ منها سيرة بنت الشاطئ إلى القراء، وتمكنهم من الإبحار في الماضي واستحضاره، وتمثل الحالة الإبداعية واستيعابها من خلال التوصيف والتحليل.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٨٥.

(٢) ينظر:على الجسر، ص٧٨.

الخاتـمة

يسعى الدارس وغايته من رحلته أن تؤتي ثمارها وتحقق بُغيتها، وبعد هذه الرحلة الماتعة مع أدب السيرة الذاتية وكتابة الذات من خلال سيرة عطرة لماجدة فاضلة من أرباب القلم وأساطين البيان، تكشفت عدة حقائق، وأفرزت هذه الدراسة عددًا من النتائج والتوصيات.

أولًا:النتائج:

١- تتميز السيرة الذاتية عن غيرها من الألوان الأدبية الأخرى بأنها غارقة في الذات (الأنا) تهتم وتحتفي بالحياة الشخصية، والكشف عن ذات صاحبها، فهي لون من اكتشاف النفس وبوح عن آمالها وآلامها في رحلتها الوجودية بين الحياة والموت، تغترف من معين ذكرياتها، وتنهل من نبع ذاكرتها.

٢- كتابة السيرة الذاتية تنهض بالأساس على تقديم عصارة أو خلاصة تجربة أو تجارب إنسانية عاشها الكاتب لذاته؛ لتبقى السيرة ذات مقام ومنزلة في حياة صاحبها لا تضاهى، فهي عصارة سنّ النضج وعمق التجارب وقد توفّرت هذه السّمة في سيرة (بنت الشاطئ).

٣- لفن السيرة الذاتية معالم فنية خاصة، تعين كاتبها على التعبير عن ذاته ورغباته وميولاته، وفكره ونظرته للحياة والأحياء، فهي تستند إلى الاستبطان الداخلي للشخصية في علاقتها بالواقع الموضوعي، والدقة في رسم الشخصية، والبناء أو الهيكل الفني المرسوم الواضح، والتزام الحقيقة وتقييد الخيال، وقوة الصراع.

٤- تعد كتابة الذّات – من خلال سيرة بنت الشاطئ – شهادة على كاتبتها وعلى عصرها، حيث فتحت فيها الكاتبة للقارئ نوافذ على محيطها الثقافي وعالمها الاجتماعي.

٥- عمدت الكاتبة إلى تصوير كل ما أثَّر في تكوينها العقلي وتطوّرها الفكري من منابع ثقافية متعدّدة وتجارب متنوّعة: أهلها وأساتذتها، وتجارب الحياة ورحلاتها، ومطالعاتها.

٦- كانت حياة بنت الشاطئ ومسيرتها مليئة بالأحداث التي تجعلها جديرة بأن تروى.

٧- - تعددت دوافع كتابة الذات عند بنت الشاطئ، وإن لم تصرح بذلك أو تفصح عن دوافعها لكتابة ذاتها وسرد مسيرتها.

٨- كتبت بنت الشاطئ سيرتها؛ ليعي القارئ حجم التحديات التي مرت بها الذات وكيف تجاوزت تلك المحن والشدائد، بل إن الصورة التي تحاول الذات ترسيخها في ذهن المتلقي تنطوي على صورة البطل الذي تحدى الصعاب وجاهد النفس على تجاوز الإحباط والضغوط، فكانت ثمرة ذلك الجهد الصورة التي أصبحت عليها الذات زمن الكتابة.

٩- كان لشعور بنت الشاطئ بوجودها وإحساسها بالرضا بما حققته من دوافع كتابتها لذاتها.

١٠- سعت بنت الشاطئ – من خلال سيرتها – إلى نقل تجربتها الروحية لقارئها كمحاولة لرفع مستوى اليقين عند المتلقي بالجانب الروحي الذي كانت تؤمن به وتسير في حياتها على هداه، وكان ذلك من بواعث كتابتها لسيرتها.

١١- كانت الآلام النفسية من الدوافع ذات الأهمية في تبلور فكرة تدوين السيرة الذاتية عند بنت الشاطئ، ومن عوامل نجاحها وخلودها.

١٢- كما كان الحنين إلى الطفولة السعيدة واسترجاع الذكريات واستعذابها من الدوافع لكتابة الذات عند بنت الشاطئ.

١٣- كتابة الذات عند بنت الشاطئ – من خلال مطالعة دوافعها للكتابة- صارت معادلًا للنجاة أمام عجلة الزمن، فقد استطاعت أن تخلق لنفسها

حيوات جديدة وذاكرة متجددة مع كل قارئ لسيرتها، وصارت من خلال كتابتها لذاتها حية خالدة.

١٤– كتابة الذات – من خلال على الجسر تعد – من وجهة نظري–إضافة نوعية لجنس السيرة الذاتية، ورافد للمكتبة العربية، استطاعت فيها بنت الشاطئ محاورة الذات معمقة – من خلال الأداء الفني والانتقاء الموضوعي – فكرة تأصيل الإنسان في المكان والزمان ؛ كما استطاعت إثراء هذا اللون الأدبي بأساليب تعبير جذابة.

١٥ – فجاء العنوان موجزًا مكثفا لكنه يحمل فضاءً من الدلالات؛ ليشير لمناسبته للغاية ولدوافع كتابة السيرة عند بنت الشاطئ.

– كما جاء العنوان في سيرة بنت الشاطئ مشوقًا ومعبرًا وملخصًا لحياة مديدة، مفعمة بالتجارب، مترحة بالآلام، ودافعًا محفّزًا للقراءة، ومفتاحًا لاستكشاف مدلولات ومقاصد السيرة.

– أدى العنوان عدة من الوظائف:**وظيفة إغرائية** تغري القارئ على مطالعة محتوى الكتاب، **وظيفة انفعالية** تحفز المتلقي، وتستميل عواطفه، **وظيفة دلالية إيحائية:** تدفع القارئ إلى استطلاع الأحداث والوقائع التي عاشتها الكاتبة.

– كما أشادت الصياغة الفنية للعنوان، بالنظم الجيد للبنية السردية والتخطيط المنسق لمسار السيرة الذاتية التي عبرت من خلالها عن أحداث حياتها.

وامتاز العنوان بالحذف والتركيب وابتعد عن العنوان الكلاسيكي، فكان له طبيعة الإحالة والمرجعية التي تعلن عن مقصدية الكاتبة ومراميها الدلالية.

– تنم **عناوينها الداخلية** عن امتلاك ناصية التعبير والتأثير والجذب، من خلال عناوين ذات طابع مشوق، يدفع القارئ للمواصلة والتعمق في السيرة، كما أنها تعد عتبةً قرائيةً تحدد الأجزاء الصغرى الداخلية، وتوحي بمضامينها، وتربط بينها ربطًا تامًّا.

١٧- تعددت صراعاتها الداخلية والخارجية النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية، وقد أفرغت كل ما حاك في نفسها تجاه تلك الصراعات التي رسمت اتجاهها وأحكمت مسيرتها وصبغت عطاءها وأنضجت شخصيتها وطورتها.

١٨ - صورت بنت الشاطئ أحداث حياتها بأسلوب أدبي رفيع حافل بالحركة والحيوية والمواقف النفسية والشعورية التي نقلتها بأمانة وصدق وحرارة، كما صورت أحداث عمرها وأطوار شخصيتها بواقعية دون زيف أو مبالغة أو مغالاة، بل التزمت الحقيقة والصدق ولم تحد عنهما، ولذلك أدلته.

١٩- سارت بنت الشاطئ في سيرتها من بدايتها إلى نهايتها ملهبةً حماس القارئ من خلال ما أبدعته في صورة عمل فني متماسك ومترابط وفق الأسس الفنية لبناء السير الذاتية.

٢٠- فاستطاعت بنت الشاطئ - من خلال أسلوبها اللغوي- أن تحول حياتها بكل معطياتها النفسية والاجتماعية إلى عمل فني أدبي تناغم فيه النص مع القارئ، ووعى ما يسرد عليه، وصارت لغتها حاضنًا استمد النص منه حضوره وتأثيره وبقاءه، بل صار شاهدًا على ثقافتها الواسعة باللغة، وامتلاك زمامها.

٢٢- كما كان دلالة على وعي بنت الشاطئ بأدوار أدوات اللغة في إثارة ذهن المتلقي، وتجلية الصوت الخفي في داخلها، وقد كان له دورٌ قادحٌ في تنشيط الشعلة الدلالية وتوافقه مع المواقف المراد التعبير عنها دفاعًا أو إقناعًا.

٢٣- جاء التناص مع القرآن موردًا أساسيًّا في أسلوب الكاتبة، وكان متناسقًا مع أفكارها ومقاصدها، منسجمًا مع طريقة عرضها، ووسيلة جاذبة ومقنعة للقارئ، خادمًا البناء الشكلي، ومعطيًا للدلالة المرادة عمقًا وتكثيفًا.

٢٤–اتضح مدى توظيف بنت الشاطئ لأدواتها الفنية في تصوير الأبعاد النفسية لديها وبيان المعاني ودلالتها، وجذب القارئ من خلال سعة المدى المعنوى **للاستفهام** وتنوع إيحاءاته، بما حمله الاستفهام عندها من دلالات متعددة ومتنوعة انزاح فيها الاستفهام عن دلالته الحقيقة؛ ليكتسب دلالات مجازية متنوعة وفق السياق الذي أتى فيه.

٢٥– يبرز الزمان عندها حالة نفسية، وليس تاريخًا موضوعيًّا، وهنا تكمن جمالية التوظيف الزمني المصطبغ بالانفعالات والمشاعر عند بنت الشاطئ.

٢٦– كان للمكان مع الزمان في مسيرة بنت الشاطئ دلالته، وقيمته النفسية؛ إذ إن العلاقة التي كانت بينها وبين المكان والزمان لم تكن علاقة وصفية مقتصرة على تصوير ما هو محسوس، وإنما كانت علاقة دلالية، وجمالية، وتعبيرية، وانفعالية.

٢٧– لعبت شخصية بنت الشاطئ في سيرتها دورًا رئيسًا قدمته بعدة أساليب كشفت من خلالها عن الأحاسيس الكامنة والمشاعر الدفينة، التي ارتبطت بنفسها المتألمة والطموحة، وصراعاتها الممتدة.

٢٨– قدمت شخصيتها وكشفت عن حياتها وتطوراتها من خلال الأحداث المتموجة التي كانت بمثابة مفاتيح لفهم نفسيتها وشخصيتها.

٢٩– أكدت بنت الشاطئ وركزت على أحداثٍ بعينها رأت من وجهة نظرها أنها الأجدر بالذكر، والأهم للقارئ عن غيرها والأنسب لغايتها من كتابة سيرتها، والملائمة لوقفتها على الجسر.

٣٠– كانت الأحداث في سيرة بنت الشاطئ بمثابة رافدٍ ثرٍّ تمت الإفادة منه في خدمة الفكرة العامة للسيرة وللغرض الذي أنشئت من أجله، وقد أجادت كاتبتنا في توظيفها لتساند أفكارها وتكوِّن رؤيةً عامة متكئةً على ثراء سيرتها بالأحداث ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية والإنسانية.

ثانيا:التوصيات

– دعوة إلى ضرورة العناية بالسيرة الذاتية وإعطائها قدرها المستحق من الدراسة والبحث أسوة بالشعر والرواية، دعوة تؤكد قيمة هذا اللون الأدبي وأنه كنز إنساني قادر على إعطاء التجارب والإلهام بكل ما يثير الحياة ويخصبها.

– السيرة الذاتية حقل دراسي جدير بالبحث من خلال سير الرواد التي تمثل جانبًا من تجاربهم، والتي تحتاج إلى دراسات مستقلة لنبش حيواتهم وإبرازها للقارئ المتذوق، واستخراج العبر والدروس للأجيال القادمة، إلى جانب القيم الإنسانية والجماليات الأدبية.

– إعادة طبع ونشر السير الذاتية لشخصياتنا الكبرى؛ كي تكون في متناول القراء والباحثين، وانتخاب بعضها ضمن المناهج التعليمية كنماذج بشرية مجيدة ذات تجارب ثرية، وقدوات حسنة.

وحين أدع قلمي من بين أناملي إعلانًا بنهاية الرحلة التي أثمرت تلك الصفحات التي لا أدعي لها التمام ولا الإلمام بكل جنبات الشخصية وجوانب الموضوع، إلا أن عزائي أني أجتهد، وكانت غايتي أن تكون تلك الصفحات باعث عزمٍ لدراسات جادة وبحوث مطولة في هذا الباب الذي قل والجوه، وهنا تكمن وصيتي الأخيرة للباحثين بأن في كتابة الذات ثراء يحتاج إلى التنقيب عنه والغوص في بحاره؛ لاستخراج صورة أكمل وأجلى للأجيال القادمة فيها القيمة والقامة والقدوة.

ولا أجد لنفسي عذرًا أبلغ من قول الأستاذ الخولي لكاتبتنا: "من قال إن الطالب يستطيع أن يصل بالبحث إلى غايته؟! نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى ما نستشرف له في كل خطوة من جديد الآفاق والغايات، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة في موضوعه، وجهد طالب العلم لا يقاس

بمدى ما قطع من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الطويل الممتد إلى غير نهاية ولا مدى"[١].

وختامًا، فالحمد لله الذي أمدني بعونه وتوفيقه وأعانني على إنجاز هذا العمل، والله أسأل أن ينفع به وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وأن يغفر الزلل، ويقيل العثرة.

**

(١) على الجسر، ص١٠٦.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولا:المصادر

- أدب السيرة الذاتية ، د. عبد العزيز شرف، ط/ لونجمان ١٩٩٢م.
- التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ط/ دار المعارف –الطبعة الثالثة.
- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. يحي إبراهيم عبد الدايم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧م.
- السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأبدى، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي، ط/ المركز الثقافي العربي – الطبعة الأولى بيروت١٩٩٤
- السيرة الذاتية في الأدب العربي– تهاني عبد الفتاح شاكر، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت٢٠٠٢م.
- سيرة الغائب سيرة الآتي – السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، شكري المبخوت، ط/ دار الجنوب للنشر ١٩٩٢م.
- السيرة تاريخ وفن، د.ماهر حسن فهمي، ط/ دار القلم الطبعة الثانية – الكويت ١٩٨٣م.
- على الجسر– أسطورة الزمان.د. عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ) ط/ دار الهلال.
- فن السيرة، د.إحسان عباس، ط/ دار صادر بيروت.
- كتابة الذات – دراسات في السيرة الذاتية، د. صالح معيض الغامدي، ط/ المركز الثقافي العربي – المغرب ٢٠١٣م
- الكتابة والوجود– السيرة الذاتية في المغرب، عبد القادر الشاوي، ط/ أفريقيا الشرق– المغرب٢٠٠٠م.

- لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (٦٣٠-٧١١هـ) ط/ دار صادر – بيروت.

ثانيا:المراجع:

- أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، د. حسني عبد الجليل يوسف، ط/ دار الثقافة للنشر والتوزيع– القاهرة د. ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين أبي عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (الخطيب)، ط/ دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى، بيروت٢٠٠٣م.
- البطولة بين الشعر الغنائى والسيرة الشعبية عنترة بن شداد نموذجًا، محمد أبو الفتوح العفيفي، ط/ إيتراك للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠١م.
- البطولة، عبد الرحمن رأفت الباشا، ط/ دار الأدب الإسلامي١٩٩٦م.
- بنت الشاطئ من قريب، حسن جبر، ط/ دار الكتاب الحديث ، القاهرة ٢٠٠١م.
- بنت الشاطئ، رحلة فى أمواج الحياة، وفاء الغزالى، ط/ كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، مايو ١٩٩٩.
- التطبيق النحوي، د.عبده الراجحي، ط/دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٩٨م.
- الثقافة والشخصية، سامية حسن الساعاتي، ط/ دار النهضة العربية، ط٢ بيروت ١٩٨٣.
- جماليات الأسلوب والتلقي، موسى ربابعة، ط أولى ، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٨ م.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني، ط/ دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

- حول الأديب والواقع، د. عبد المحسن طه بدر، ط/ دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٠.
- الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٤م.
- زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، أحمد الحملاوي، ط/ المكتبة التوفيقية بالقاهرة.
- الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي، د.محمد حسين الأعرجي، ط/ عصمي للنشر والتوزيع، القاهرة
- فتنة المتخيل، محمد لطفي اليوسفي ج٣، ط/١٦المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،٢٠٠٢.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن قيم الجوزي محمد بن أبي بكر الزرعي(ت ٧٥١هـ)، ط/ مكتبة المتنبي بالقاهرة.
- في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د.عبد الملك مرتاض، ط/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلةعالم المعرفة/ العدد مئتان وأربعون، الكويت١٩٩٨.
- القيم الجمالية في الشعر الأندلسي –عصر الخلافة والطوائف، د. آزاد محمد كريم الباجلاني، ط/ دار غيداء – عَمَّان ٢٠١٣م.
- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب .د. نعمان بوقرة، ط/ جدارا للكتاب العالمي، عمان ٢٠٠٩م.
- مع المصطفى، د. عائشة عبد الرحمن،ط/ دار المعارف.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، ط/ دار القلم، الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٩م.

ثالثًا:الدوريات

- أساليب التشويق في المقال الأدبي عند الرافعي، د.عبد الحميد بدران حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثاني والثلاثون –٢٠١٧م.
- استدعاء الشخصيات الإسلامية في شعر نزار قباني – د. رعد رفعة مولود، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، العدد الخامس والأربعون، حزيران (يونيو) ٢٠١٨ م.
- تداخل الأنواع الأدبية وشعرية النوع الهجين، د. عبد الناصر هلال، ط/ النادي الأدبي الثقافي بجدة، العدد١٦٤، ١٤٣٣هـ.
- دوافع كتابة السيرة الذاتية في الأدب العماني، مقال بجريدة الوطن العمانية، للكاتب نصيب الصبحي، بتاريخ ٢٠١٦/٣/١٦م
- رقش الذات لا كتابتها، تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، ضمن لغة الذات:السير الذاتية والشهادات، صبري حافظ: مجلة ألف، العدد الثاني والعشرون، ٢٠٠٢م.
- سيميائية العنوان في النصوص الإبداعية– مقال بمجلة الزمان للكاتب فوزي هادي الهنداوي، بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٦م.
- كتابة السيرة الذاتية من أدب الاعتراف إلى استدعاء الذكريات، حمدي عابدين، مقال بجريدة الشرق الأوسط، العدد رقم(١٥٢٨٦) (٤أكتوبر ٢٠٢٠ م).
- مقاربة دوافع الكتابة في سرد الذات– مقال بمجلة الخليج بتاريخ ٢٠١١/٩/٢م.
- الناس – المحكيات ألف ليلة وليلة، تزفيتن تودوروف، ترجمة:الصديق بوعلام، مجلة الكلمة، العدد ١٣٩ نوفمبر ٢٠١٨م.

* * *